السلوك الإرادى

يوسف ميخائيل أسعد



الكتاب : السلوك الإدارى
المؤلف : يوسف ميخائيل أسعد
رقم الإيداع : ٣٧٥١
تاريخ النشر : ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 496 - X

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

المقدمة

سبق أن صدر لنا كتاب **قوة الإرادة** ثم كتاب **إرادة القوة** ثم كتاب **سيكولوجية الإرادة**.

وفى هذا الكتاب نعرض لعلاقة السلوك بالإرادة. والواقع أن موضوع الإرادة متَّسع الأرجاء، ومَعِينه لا ينضُب مهما ساهم بالكتابة فيه المؤلفون. ولا غرو فإن النشاط الإنسانى برُمته، لا يخرج إلى حيز الواقع الملموس إلا بفضل استثمار الإرادة، فيتجسد عن طريقها ما ينتهى الإنسان إليه من فكر، وما يعتمل فى قوامه من وجدان يتبلور فى هيئة عواطف حول المحاور الفكرية التى تبدو فى هيئة مخططات تصبو إلى الخروج إلى الواقع المحسوس بفضل توظيف الإرادة ودفعها للطاقات البشرية وشحذها للعمل.

أما بخصوص المنهج الذى يتبعه المؤلف فى الكتاب، فهو المنهج الذى يَتَّبعه كل من يرغب فى تقديم الجديد غير المسبوق فيما يقوم بكتابته وتقديمة إلى القراء. صحيح أن الترجمة عن اللغات الأجنبية تعمل على تخصيب الفكر، وقد قام المؤلف بترجمة العديد من الكتب التى أحس أنها خليقة

بأن تترجم، وصحيح أيضا أن الدراسة البحثية تسمح للباحث بالوقوف على العديد من وجهات النظر المتقاربة أحيانا، والمتباعدة أو حتى المتعارضة أحيانا أخرى، وقد اضطلع المؤلف بعدة بحوث فى التربية وعلم النفس، ولكن مما لا شك فيه أن التأليف المحض له مذاق خاص؛ لأنه بمثابة إبداع نتيجة العديد من التفاعلات الخبرية التى تشبه التفاعلات الكيميائية.

أبريل ١٩٩٧ يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

الخصائص السلوكية للإرادة القوية

الإفادة من الخبرات السابقة ومن خبرات الآخرين :

ليس هناك شك فى أن المرء يخضع لسلسلة متصلة من التفاعلات الخِبْرية بين آخر مستوى خِبْرى بلغه، وبين المثيرات الخِبْرية المتتالية والمتلاحقة والمتباينة. والخبرات التى تتأتى للمرء، قد تكون خبرات معرفية، وقد تكون خبرات وجدانية، وقد تكون خبرات كلامية، وقد تكون خبرات اجتماعية. وجميع هذه الخبرات تتخذ لها مجرى إلى خارج نطاق دخيلة المرء، فيأخذ فى التعبير عنها خارج نطاقه فى الواقع الاجتماعى الذى يوجد به. وقد تكون النتاجات التعبيرية التى تَصْدر عن المرء تلقائية وغير إرادية، كما أنها قد تكون إرادية فتصدر عنه نتيجة رَوِية وإقدام على تجسيدها فى شكل أو آخر من الأشكال الملائمة لنوعياتها المختلفة.

بيد أن التفاعلات الخبْرية التى تتأتى للمرء، لا تكون

بين قطبين أحدهما ذاتيته والآخر الواقع الخارجى فحسب، بل إن هناك تلك التفاعلات الخبرية، التى قد تتخذ طريقًا آخر، هو دخيلة المرء. فالواقع أن الخبرات التى سبق للمرء أن تلقاها واكتسبها واستوعبها، لا تظل فى حالة ركود وإستاتيكية، بل إنها تكون فى حالة من النشاط والدينامية. فثمة تفاعلات خبرية تنشأ فيما بين الخبرات التى تم للمرء اكتسابها واستيعابها وهضمها. على أن تلك التفاعلات الخِبْرية الداخلية، لا تتم عن وعى وإدراك من جانب المرء، بل تتم بطريقة لا شعورية بعيدًا عن المجال الشعورى الإدراكى. وعلى هذا فلا بد من الاعتراف بأن تلك التفاعلات الخبرية، تدفع بالحصيلة الخبرية بطفرات إلى الأمام. فلايكون مجال الاكتساب الخبرى من خارجية المرء فحسب، بل يكون أيضًا من دخيلته.

وفى ضوء هذا يكون مفهومنا عن الاكتساب الخِبْرى، والتقدم فى معارج قوة الإرادة، غير مقتصر على ما يتلقاه المرء من الخارج من مؤثرات بيئية، كما أنه لا يعتمد على مدى النطاق أو الحدود التى وصلت إليها الخبرات الأدائية الإرادية الموجودة بالبيئة، بل تكون نظرتنا إلى الاكتساب الخبرى بطريقة إيحائية من جانب المرء المتلقى للخبرات من الخارج. فثمة عمليات تصنيعية تركيبية أشبه ما تكون بالتفاعلات

الكيميائية التى يتأتى عنها التوصل إلى مركبات كيميائية جديدة ذات خصائص مباينة للخصائص التى تتصف بها المقومات التى دخلت فى إطار التفاعلات الكيميائية. وعلى هذا فثمة مفهوم جديد لإيجابية المتعلم الذى يكتسب الخبرة غير المفهوم الشائع فى الأذهان وعلى أقلام من يتعرضون لموضوع الاكتساب الخبرى، فالإيجابية التى نؤمن بها، هى الإيجابية التفاعلية التى يتأتى عنها مقومات خِبْرية مركبة لم يكن من الممكن التنبؤ بها مُسْبقًا.

ولعلنا نقوم فيما يلى بمدارسة الخطوات التى يمر فيها المرء، حتى يفيد من خبرات الآخرين، ثم نقوم بعد هذا بمدارسة الخطوات التى تمر فيها التفاعلات الخِبّرية الداخلية اللاشعورية. فبالنسبة للخطوات التى يمر فيها المرء، حتى يفيد من خبرات الآخرين فإن من الممكن تحديدها على النحو التالى :

أولا - التقييم الذاتى لمستوى الخبرات التى سبق للمرء اكتسابها والإحساس بالحاجة إلى الاستزادة منها. وبتعبير آخر، فإن المرء يحس بالنقص فيما يتعلق بنوع الخبرة التى قام بتقييمها. وهذا يذكرنا بما سبق أن قرره ألفريد أدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٧) من أن الركيزة التى يقوم عليها سلوك المرء،

هى الرغبة فى التعويض عن الشعور بالنقص واللحاق بالآخرين الذين بَزُّوه وتفوقوا عليه بإزاء المجال أو المجالات التى تستحوذ على اهتمامه وتشكِّل محورًا لبذل جهده. والتقييم الذى نعنيه، هو تقييم يتصف بالعمومية والشمول للمقومات المعرفية والوجدانية والنزوعية. فلكأن هذه الخطوة بمثابة استعداد لإمكان تلقى خبرات جديدة من الآخرين حتى يتسنى سد الفجوة الخبرية التى يحس بها المرء.

ثانيًا - تحديد نقطة الالتقاء بين مستوى الخبرة الذاتية ومستوى الخبرة التى يجب أن يبدأ المرء عندها فى الاكتساب والتلقى للخبرة الجديدة، بحيث يكون الجديد المكتسب بمثابة استمرار لما سبق كَسْبه، وبحيث لا تكون ثمة فجوة فيما بين ما سبق أن اكتسبه المرء وبين مستوى الخبرة التى يُقْبل على اكتسابها وبحيث أيضا لا تكون الخبرة التى يقبل على اكتسابها بمثابة تحصيل حاصل، أى أن يكون المرء قد سبق له كَسْبها واستيعابها. وبذا يتحقق الاستمرار فى نموه الخِبرى.

ثالثًا - طرح الخيارات المتباينة أمام نظر المرء، حتى يتسنى له الاختيار من بينها. وفى هذه الخطوة يتصف التقييم الخِبرى بالموضوعية، وذلك بمقارنة الخيارات المتاحة الممكنة

بعضها ببعض، والمفاضلة فيما بينها، بحيث يتم استبعاد الردىء وغير المناسب، حتى يتسنى الخلوص بالخبرات المناسبة لا ستقبالها واستيعابها.

رابعًا - بعد التوصل إلى الخبرة المنتقاة، يبدأ المرء بتسليط الأضواء عليها بحيث يتسنى له سبر أغوارها، والوقوف على خباياها، وتفهم العلاقات الداخلية بها، والعلاقات التى تقوم بينها وبين الخبرات الأخرى. ولعلنا نشبه هذه الخطوة، بما يفعله علماء الفزياء الذين يبدءون دراستهم للطبيعة، وبالوقوف على البادى للعيان منها، وهو ما يعرف بالماكروفيزياء، ثم إنهم بعد ذلك يأخذون فى مدارسة ما يعرف باسم الميكروفيزياء، أعنى ما يحتاج إلى ميكروسكوبات عادية أو ميكروسكوبات إلكترونية، تمكنهم من الوقوف على دقائق الوجود الفيزيائى. فبعد الوقوع على الخيارات المناسبة بناء على فكرة عامة، يقوم المرء بتسليط الأضواء على ما تم له اختياره من الخبرات، ويتفهمها تفهمًا جيدًا بحيث تتشكل فى عقله صورة ذهنية متكاملة ووافية بإزائها.

خامسًا - وتأتى بعد هذا الخطوة الأخيرة، وهى خطوة الامتصاص الخبرى. وهذا الامتصاص يتم بواسطة العقل والعاطفة والأداء جميعًا. وحتى بالنسبة لما يسمى بالخبرة

المعرفية، يبدأ المرء بتشكيل صورة ذهنية عنها، ثم يدير حولها وجداناته، ثم هو بعد ذلك يسيطر عليها بالأداء، فيقوم بتدوينها أو التعبير عنها بالكلام. ولا غَرْو فإن عملية التدوين وعملية التعبير بالنطق هما فى الواقع أداء بمعنى الكلمة. ونحن لا نستطيع أن نتخيل إمكان إحراز خبرة معرفية، دون أن يتم تجسيدها بطريقة أو بأخرى، سواء بالكلام المكتوب، أم بالكلام المنطوق، ولنا أن نقول إن هذه الخطوة تستغرق وقتًا يقصر أو يطول حتى يتم الامتصاص الخبرى تمامًا.

وبعد هذا العرض للخطوات التى يمر فيها المرء، حتى يفيد من خبرات الآخرين، يكون علينا بعد هذا أن نعرض الخطوات التى تمر خلالها التفاعلات الخِبْرية الداخلية اللاشعورية على النحو التالى :

أولاً - الخطوة التصنيفية : يقوم المرء بتصنيف الخبرات التى استفادها من الخارج، والتى تكون قد هُضمت واستوعبت استيعابًا تاما، واستحالت إلى لَحْم خبراته الداخلية. وهذا التصنيف إلى فئات متجانسة، يتم بطريقة لا شعورية غير واعية. ومن الخطأ فى الواقع الاعتقاد فى أن العمليات التصنيفية، لا يتسنى لها أن تتم إلا عن طريق العقل الواعى. وإذا قال قائل إن التصنيف إلى فئات متجانسة،

حاجة إلى إعمال الذكاء فى مجموع الخبرات التى يتسنى حرازها، أو التى يرغب المرء فى إحرازها، فإننا نذكِّره بأن مناك ثلاثة أنواع من الذكاء : الأول الذكاء الشعورى الذى يتم بطريقة واعية ومدركة تمامًا، والثانى الذكاء الفسيولوجى الذى يضطلع الجسم بأنشطته المختلفة، فيميِّز بواسطته فيما بين المفيد والضار، وفيما بين الملائم وغير الملائم بيولوجيًا. والثالث هو الذكاء اللاشعورى العقلانى الذى يضطلع بإقامة العلاقات أو بالعمليات التصنيفية العقلانية والمرء بعيد عن المجال الشعورى، كما يحدث فى حالات النوم أوالتنويم أو التخدير أو غير ذلك من حالات لا شعورية.

ثانيًا - الخطوة الاستيعابية : وفى هذه الخطوة يقوم المرء باستبعاد ما لم يتسن إخضاعه لعمليات التصنيف، وما لا يتسنى تجميعه بعضه إلى بعض فى هيئة حِزَم أو مجموعات أو فئات متجانسة. ولا يقتصر الاستبعاد على هذا، بل يتعداه إلى استبعاد العناصر المعوِّقة أو الضارة، أو العناصر الخِبْرية التى تعمل على تقويض أو إفساد المجموعات التى تم تصنيفها والتوصُّل إليها فى الخطوة التصنيفية السابقة. أضف إلى هذا أن هذه الخطوة الاستبعادية تقوم أيضًا باستبعاد أو التخلص من العناصر الخِبْرية المفككة، أو بتعبير آخر تلك العناصر التى لم تخضع لعملية التفاعل الخِبْرى. وظلت بمثابة نُتف مبعثرة،

أو عناصر مفككة لا يجمعها تنسيق أو تصنيف، ولم يتسن إدراجها فى نطاق عمليات تفاعلية لدى استقبالها من البيئة الخارجية، سواء مع عناصر أخرى، أم مع مركبات خبرية.
ونعود فنذكر القارئ بأن هذه الخطوة الاستبعادية-شأنهاشأن الخطوة السابقة، وشأنها أيضًا شأن الخطوات الثلاث التالية-تتم بطريقة لا شعورية غير مدركة من جانب المرء.

ثالثًا - الخطوة الانصهارية : وفى هذه الخطوة، يعمد المرء لا شعوريًا إلى صهر المقومات الخِبْرية التى أبْقى عليها، واحتفظ بها، لتصير من لحم قوامه الخِبْرى. بيد أن هذه الخطوة، وإن كانت بمثابة خطوة إلى الأمام فى سبيل إحداث التفاعلات الخِبْرية الداخلية، فإنها مجرد خطوة نحو تحقيق التفاعل . ذلك أن المقوِّمات الخِبْرية وإن كانت تمتزج بعضها ببعض، فإنها لا تفقد قوامها الجوهرى، ولا تتنازل عن إنِّيتها، بل تظل متشبثة بخصائصها وجوهرها. على أن هذا الامتزاج بين تلك المقومات الخِبْرية فى تلاحمها الامتزاجى بعضها مع بعض، تصير مهيأة لما سوف تنخرط فيه فى الخطوة التالية، وهى الخطوة التفاعلية. فكل مقوِّم خِبْرى فى هذه الخطوة شبيه بمرحلة الخطوبة التى تسبق الزواج. ففى الخطوبة يتم الامتزاج النفسى بين الخطيبين. ولكن فى الزواج يتم التفاعل بينهما-أعنى اتحادهما جسميًا ونفسيًا معًا وتفاعلهما بعضهما

ببعض-بحيث لا يكونونان بعد اثنين بل شخصًا واحدًا، بفرض أن الزواج يكون زواجًا ناجحًا.

رابعًا - الخطوة التفاعلية : الواقع أن هذه الخطوة هى بيت القصيد. ففى هذه الخطوة تتحد المقومات الخِبْرية بحيث تتشكَّل منها مركبات خِبْرية ذات خصائص جديدة مباينة لخصائص الخبرات التى تم بينها التفاعل الخِبْرى. ولا يَعْزب عن البال، أن ما يتم من تفاعل خِبْرى، إنما يتم بصفة مستمرة بغير توقف على الإطلاق. فالنشاط النفسى التفاعلى، لا يعرف إلى الركود أو السكون سبيلاً. فما دام أن المرء فى حالة اتصال بالواقع الخارجى، ومستمدا منه خبرات جديدة، فإنه يمر فى الخطوات الأربعة التى ذكرناها، كما يمر بالخطوات التالية-أعنى الخطوة التنقيحية- وعلينا أن نؤكد المرة تلو المرة، أن الخطوات التى يمر فيها المرء حتى يفيد من خبرات الآخرين، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالخطوات التى تمر فيها التفاعلات الخِبْرية اللاشعورية الداخلية. بيد أن صاحب الشخصية المتسمة بقوة الإرادة، تكون إفادته من خبرات الآخرين أبعد شأوًا، كما تكون التفاعلات الخِبْرية اللاشعورية الداخلية لديه أقوى فاعلية، بحيث يتأتى عن تلك التفاعلات مركَّبات خبرية أكثر تعقيدًا وجِدَّة وإبداعًا.

خامساً - الخطوة التنقيحية : هذه الخطوة تتصف بأنها خطوة تقييمية تقويمية، بمعنى أن المرء يقوم لا شعوريا بفحص المركبات الخِبْوية التى نتجت عن الانخراط فى العمليات التفاعلية، مروراً بالخطوات التى عرضنا لها جميعاً. وقد يكون المرور من خطوة إلى الخطوة التالية قبل الأوان، أو أن العمليات التفاعلية لا تتم على الوجه الأكمل، فيأخذ المرء فى الانحراط لا شعوريًا فى العمليات التصحيحية أو التقويمية. والواقع أن هذه الخطوة تتم فى ضوء ما سبق للمرء إحرازه من خبرات عديدة متنوعة خلال مراحل عمره السابقة. فكلما كانت حصيلته الخِبْرية التى أحرزها فى مواقف حياته المختلفة السابقة أكثر غزارة وأرفع مستوى، كانت إذن هذه الخطوة التنقيحية على جانب أكبر من النجاح والفاعلية، بيد أن الخبرات السابقة التى تم للمرء اكتسابها، قد يكون من شأنها إعاقة التقييم والتقويم. اللذين تتضمنهما هذه الخطوة التنقيحية. فنحن نعلم أن الخبرة المكتسبة، قد تكون خبرة إيجابية، كما أنها قد تكون خبرة سلبية. ولا ننسى أن الخبرة قد تكون خبرة وجدانية مناهضة أو معوقة، وقد تكون خبرة نكوصية تدفع بالمرء إلى التشبث بمستويات خِبْرية لا تتناسب مع المرحلة العمرية التى يمر بها. ناهيك عما قد يصيب المرء من أمراض نفسية، سواء كان مردها إلى إصابات

فى الجهاز العصبى المركزى، أم كانت أمراضًا نفسية وظيفية، تعوق المرء عن القيام بعمليتى التقييم والتقويم وتصحيح مسيرته الخبرية.

التخطيط الواقعى فى ضوء الإمكانات المتاحة :

إن صاحب الإرادة القوية، يتسم بالواقعية والوقوف على الإمكانات المتاحة، سواء كانت إمكاناته الشخصية، وما سبق له اكتسابه من خبرات ومهارات، أم كانت الإمكانات البيئية التى يمكن استغلالها والإفادة منها. فهو يزاوج بين هذين النوعين من الإمكانات، ويقيم علاقات دقيقة فيما بينهما. ومن الواضح أنه بغير أن يقف المرء على حدود إمكاناته الشخصية من جهة، والإمكانات المتوافرة بالبيئة، أو قل الواقع الطبيعى والواقع الاجتماعى من جهة أخرى، يستحيل عليه أن يضع خطة، لما سوف يُحيله إلى واقع فى المستقبل.

بيد أن التخطيط الواقعى، لا يأخذ فى اعتباره الواقع الآنى المتوافر « **الآن وهنا** » فحسب، بل يأخذ فى اعتباره الزمان بأضلاعه الثلاثة، أعنى الماضى والحاضر والمستقبل، كما أنه يأخذ فى اعتباره البيئة المباشرة المحيطة به من جهة، كما يأخذ فى اعتباره البيئات المختلفة القريبة والبعيدة عن بيئته المحيطة به من جهة أخرى. أضف إلى هذا أن المخطط

صاحب الإرادة القوية، ينظر بنظرة ثاقبة مستقبلية إلى ما سوف تتطور إليه بيئته المحلية والبيئات القريبة والبعيدة عن بيئته من أوضاع وحالات. وبتعبير آخر فإن المخطط يأخذ فى اعتباره الواقع والمتوقع لذلك الواقع، وما سوف يئول إليه من حالات مباينة كثيرًا أو قليلاً للواقع الآنى الراهن.

وإذا نحن نظرنا إلى التخطيط الواقعى وتساءلنا عن مدى تأثيره بذاتية المخطِّط، فإننا نجد أنه برغم اتِّصاف التخطيط الواقعى بالواقعية، فإننا لا نستطيع أن نَغُض النظر عن العامل الذاتى فى التخطيط. فنحن نؤمن إيمانًا قاطعاً بالتفسير التفاعلى للنشاط الإنسانى - كائنًا ما يكون ذلك النشاط الإنسانى. وعلى هذا فإننا لا نجتزئ بالتفسير الموضوعى، كما أننا لا نجتزئ بالتفسير الذاتى، وإنما نأخذ بالتفسيرين مجتمعين ومتفاعلين بعضهما مع بعض، ليتأتى عن تفاعلهما اتجاه تتجلى فيه الموضوعية والذاتية على السواء. ومعنى هذا فى الواقع أن التخطيط الواقعى الذى يتحرَّاه الشخص صاحب الإرادة القوية، لا ينفصل عن ذاتيته، بل يتصف بالصبغة الذاتية وبالطابع الشخصى الخاص به.

وعلى هذا فإننا نجد أن التخطيطات المتباينة التى يضعها أشخاص متباينون يتصفون جميعًا بالإرادة القوية،

تتباين من واحد إلى آخر وتتمايز، بالرغم من أنهم جميعًا قد تحروا الواقعية فيما قاموا بالتخطيط له. ومن ثَمَّ فإنك تجد أن المخطِّطين أصحاب الشخصيات القوية، لا يعمدون إلى صب أنفسهم فى قالب واحد هو القالب الموضوعى، بل إنهم يعبِّرون عن ذواتهم بحيث تتبدى الفروق الفردية فيما بينهم، سواء من حيث مستوى الذكاء، أم من حيث القدرات الخاصة، أعنى المواهب الفردية، أم من حيث ما سبق أن حازه كل منهم من خبرات سابقة فى المجال الذى يقوم بالتخطيط بإزائه.

وحتى عندما تشترك مجموعة من الأشخاص فى التخطيط الواقعى، فإن تلك المجموعة إذا كانت متصفة بالتكامل والتآزر فيما بين أفرادها، تصير ذات طابع شخصى متمايز عما تتصف به المجموعات الأخرى، فيُحكم عليها بأنها مجموعة ذات إرادة قوية أم أنها ذات إرادة متوسطة القوة أو ضعيفة. وعلى أية حال فإن التخطيط الذى تضطلع به هذه المجموعة، ينم عنها ويعبِّر عن شخصيتها، ويُفْصح عن ذاتيتها، برغم أنها تتحرى فيما تقوم به من وضع للخطط، أن تكون تلك الخطط متصفة بالموضوعية. فما تضعه منها، يكون بمثابة مركَّب كالمركب الكيميائى الذى لا يمكن عزل المقومات الموضوعية فيه بعضها عن بعض، بل تكون له خصائص جديدة، هى خصائص ذلك المركب الكيميائى.

وَحرِى بنا أن نستعرض الخصائص التى يجب أن تتوافر فى التخطيط الواقعى، فنجد أن تلك الخصائص يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

أولاً - قبل الشروع فى وضع التخطيط، يجب على المخطِّط أن يقوم هو ومعاونوه بمدارسة الوضع القائم حاليًا، مع التذرع بنظرة تاريخية إلى الوضع الراهن فى علاقاته بالماضى القريب والماضى البعيد على السواء. فمن الضرورى أن يقف المخطِّط على جميع العوامل الإيجابية والسلبية التى أثرت وتؤثر فى المجال الذى يراد التخطيط له. ويتطلب هذا فى الواقع ضرورة إعداد الطاقة الذهنية اللازمة لجمع المعلومات الضرورية المتعلقة بموضوع التخطيط، ولما سوف يتم الاضطلاع به من تخطيط مناسب وفعّال.

ثانيًا - أخذ جميع احتمالات المستقبل فى الاعتبار. ويتطلب هذا فى الواقع ضرورة تمتع المخطِّط بالنظرة المستقبلية، وذلك بتحسس آفاق المستقبل، بناء على ما يتضمنه منطق الواقع الحاضر. فالواقع أن المخطِّط صاحب الإرادة القوية، يُعمل إرادته فى السياق الزمانى. فهو يبنى توقعاته المستقبلية على يقينه باستمرارية الزمان، واعتقاده القاطع بأن أحداث المستقبل، لا تنشأ من فراغ، ولا تقفز من

المجهول تمامًا، كما أن الوقائع التى تحدث فى الحاضر، لا تعدو عن كونها اتبثاقًا من وقائع الماضى القريب والماضى البعيد. بيد أن استمرارية الأحداث عَبْر الماضى والحاضر والمستقبل، لا تعنى الحتمية الأحادية، بمعنى عدم وجود سوى واقع واحد يتأتى عن واقع سابق عليه، بل تعنى وجود عدة احتمالات للحدوث والتحقيق. ولقد يحتمل الواقع الآنى الواحد وجود العديد من الاحتمالات المتساوية فى إمكان الحدوث. فالمخطِّط صاحب الإرادة القوية، لا يركن إلى توقُّع احتمال واحد من بين الاحتمالات الكثيرة التى يحتمل تحقيقها على قدم المساواة.

ثالثًا - على أن النظرة المستقبلية التوقُّعية، أو أخذ احتمالات المستقبل فى الاعتبار، لا يعنى أن المخطِّط يظل مترسِّمًا المستقبل القريب والمستقبل البعيد فحسب، بل إنه يكون فى الوقت نفسه آخذًا فى اعتباره تدفقات المستقبل إلى الحاضر واستحالة التوقعات إلى واقع. فاللحظة الحاسمة فى التخطيط، هى تلك اللحظة التى تتدفَّق فيها الاحتمالات، لكى تتجسد فى وقائع وأحداث، فتخرج بذلك من مجال التصورات الذهنية، لكى تتجسد فى الواقع الحى. ولكن هل يطأطئ المخطِّط صاحب الإرادة القوية رأسه أمام تدفق الاحتمالات وتجسيدها فى هيئة وقائع، بحيث لا يكون له دور فى الاختيار

والترتيب ؟ الواقع أن المخِّطط صاحب الإرادة القوية يتباين تباينًا جوهريًا عن المخطط الذى لا يُعمل إرادته فى الموقف، كما يختلف عن المخطِّط صاحب الإرادة الضعيفة أو الإرادة السلبية الذى يتخذ موقف المتفرج على ما يحدث. فهو يحدد اللحظة الحاسمة التى يكون عليه عندها أن بقوم بترتيب الأحداث، أو بتعبير أدق أن يقوم بإعمال إرادته بحرية فى استبعاد ما لا يريد حدوثه أو تجسُّده، ويفضِّل عليه ما يريد أن يعطيه الأولوية فى التحقيق والتجسُّد. فبينما نجد المخطط صاحب الإرادة القوية يُعْمل إرادته المعرفية فى الخطوة السابقة، فإننا نجده فى هذه الخطوة يُعْمل إرادته الإدارية أو التنظيمية، فيرتب أولويات الحدوث أو التجسُّد، أعنى خروج الاحتمالات من حيِّز التصورات الذهنية إلى حيِّز الواقع الحى.

رابعًا - ومن المعلوم والمقطوع به أن إخراج الاحتمالات من حيِّز التصورات الذهنية إلى حيز الواقع المجسَّد، لا يتسنى إلا بتوافر إمكانات التنفيذ العملية الأدائية. من هنا فقد كان لزامًا على المخطِّط صاحب الإرادة القوية، أن يعمِد إلى توفير إمكانات التنفيذ العملية، بل وتوفير الظروف المناسبة التى تضمن تنفيذ الخُطَّة أو الخُطَط التى قام بوضعها. ولكن هذا لا يعنى أن من المحتم أن يكون المخطِّط هو نفسه المنفِّذ

لخُطَطه. صحيح أنه قد يشترك فى التنفيذ، أو حتى لقد يكون هو الشخص الوحيد الذى يضطلع بالعمليات التنفيذية جميعًا، ولكن الأصل فى التخطيط، أن يكون مستقلا عن التنفيذ، ولكنه لا يكون منفصلاً عنه أو أن يكون التنفيذ ضاربًا فى اتجاهات مباينة للاتجاهات التى ترسمها التخطيط، أو آخذًا فى اعتباره مبادئ أو أهدافًا غير المبادئ والأهداف التى التزم بها المخطِّط فى الخُطَط التى وضعها. ولكن مع هذا فإن تنفيذ الخُطَّة - برغم الالتزام بها - قد يتطلب تعديلها فيما يتعلق بتفصيلاتها، دون المساس بجوهرها أو بالخطوط العريضة بها.

خامسًا - وما يؤكد تلاحم التخطيط بالتنفيذ، ما يجب أن يتوافر للمخطِّط من سلطة، يتسنى له بواسطتها أن يجهز الطاقة البشرية اللازمة لتنفيذ الخُطَّة الموضوعة، وأيضًا القيام بتوزيع المسئوليات على الأشخاص المشتركين فى التنفيذ. ومعنى هذا أن مهمة المخطِّط، لا تقف عند حدود وضع الخطة، بل يجب أن تمتد مهمته إلى النطاق التنفيذى. وبتعبير آخر فإن التنفيذ يجب أن يخضع للتخطيط. ولعلنا بهذه المناسبة نعزو فشل الكثير من الخُطَط العظيمة إلى انفصال التخطيط عن التنفيذ، وعدم خضوع الأجهزة التنفيذية للأجهزة التى تقوم بالتخطيط. وبذا يحكم على

القائمين بالتخطيط، بأن يظلوا شخصيات هامشية، أو بتعبير آخر يحكم عليهم بأن يكونوا مسلوبى الإرادة، أو ضعاف الإرادة، فيما بتعلق بالمجالات التى يقومون بالتخطيط لها.

وبالإضافة إلى هذا العامل الضار بتنفيذ الخُطَّة نتيجة انفصال التخطيط عن التنفيذ، ثمة مجموعة من العوامل المعوِّقة التى لا تسمح بجعل التخطيط ناجعًا وبالتالى تتسبب فى الحكم على المخطط بضعف الإرادة ووهنها، ولعلنا نقوم بتحديدها على النحو التالى :

أولاً - البرج العاجى : هناك كثير من الناس لا يعيشون على أرض الواقع، بل يعيشون فى أبراج عاجية كما يقال. فهم يتصفون بالرومانسية، وينزعون إلى الخيال الجامح، مخاصمين الواقع، وغير ملتحمين به، وغير صادرين عنه. فالواحد من هذه الفئة من الناس، يعيش فى نطاقه الذاتى، فيبدأ فى وضع خُططه من أخيلته الشخصية، ومعبِّرًا فيهاعن طموحاته وآماله وأحلامه وأوهامه، فخُطَطه تتصف إذن بالذاتية. وأنىَّ للذاتية أن تكون أرضًا صُلْبة تنبنى عليها الخُطَط العملية؟ وحتى بالنسبة لحياة المرء الشخصية - وهى بالضرورة تتضمن الخُطط التى يكون نجاح المرء فى حياته معتمدًا عليها - إذا هو كان ملتحفًا بالرومانسية، والصدور

فيما يقوم بالتخطيط له، عما يمليه عليه منطق البرج العاجى، فإنها تكون حياة فاشلة. وبتعبير آخر فإن القابع فى برجه العاجى يكون نهبا لمنطق عواطفه، وهو منطق يتصف أساسًا بالتقلب المستمر. ومن ثَمَّ فإنه ما يكاد يبدأ فى وضع إحدى الخُطَط، حتى يجد أن عواطفه المتقلِّبة تدفع به إلى عدم الاستمرار فيما شرع فى وضعه وتخطيطه والانتقال إلى تخطيط ثان فثالث فرابع إلى آخر ما يمكن تخيله من خُطَط. وقد يتذبذب بين خُطَّتين أو أكثر دون أن يتم تخطيط أى منها.

ثانيًا - نقص الخبرة التخطيطية : ومما يعمل على ضعف إرادة المخطط، عدم نضوجه فيما يتعلق بالخبرة التخطيطية. ولكن قد يكون المخطِّط ناضجًا خبِريا بإزاء مجال معين، بينما يكون فجا طريا بإزاء مجالات أخرى. فإذا هو تصدى للتخطيط فى المجال الذى لم يتمكن منه ويستوعب آفاقه ودقائقه، فإن الفشل يكون إذن حليفه والمهيمن عليه. ومن الأخطاء الخطيرة الاعتقاد فى أن من ينجح فى التخطيط لميدان ما من ميادين الحياة، يكون بالتالى ناجحًا أو قديرًا فى التخطيط لأى مجال يقوم بالتخطيط له. فإذا ما أسند إليه التخطيط لمجال ليس له باع طويل فيه، فإنه يُبدى عندئذ العجز الإرادى، وتأتى خُطَطه التى وضعها باهتة خافتة وغير ناجعة.

ثالثاً - الطموح الزائد : الواقع أن الطموح الزائد فى التخطيط، هو تعبير عن الرغبة فى الخروج من نطاق الممكن إلى نطاق المستحيل، أو بتعبير آخر إحالة المستحيل أو الخروج به من نطاقه وإدخاله فى دائرة الممكن. وقد تكون الاستحالة متعلقة بالوقت، إذ يعمد المخطِّط إلى افتراض تنفيذ الكثير من جوانب الخطة خلال وقت أقصر بكثير من الوقت الذى يسمح بالتنفيذ. وقد تكون الاستحالة متعلقة بتخطى مرحلة أو أكثر من مراحل تنفيذ الخطة، أو بتعبير آخر القفز دون المرور على الخطوات التى يجب أن يمر فيها التنفيذ، وذلك بسبب الطموح الزائد والرغبة فى تحقيق الأهداف المرجوة من الخُطَّة حتى ولو تطلب ذلك الانتقال بطفرات متسارعة للقفز إلى النتائج بسرعة وطَفّرية.

سَبْر الأغوار والامتداد بالجذور :

يحصر كثير من الناس معنى الإرادة من حيث قوتها أو ضعفها فيما يبدر من تصرفات تصدر عن المرء. بيد أن الواقع أن ثمة ضلعين آخرين يجب أن ينضافا إلى التصرفات الخارجية، حتى يتسنى لنا إحراز مفهوم متكامل عن الإرادة، سواء كانت إرادة قوية أم إرادة ضعيفة. أما الضلع الأول فهو الضلع المعرفى. أما الضلع الثانى فهو ضلع الوجدان.

فالتصرفات الإرادية ترتكز على هذين الضلعين الأساسيين.

بيد أن الإرادة ليست مجرد توافر هذين الضلعين، بل إن للإرادة قوامًا قائمًا بذاته. وحتى بالنسبة لهذين الضلعين المعرفى والوجدانى، فإن للإرادة دخلاً فى عملهما. فثمة معرفة سلبية، وأخرى إيجابية من جهة، كما أن ثمة وجدانًا سلبيًا ووجدانًا إيجابيًا من جهة أخرى. ففى حالة المعرفة السلبية أو الوجدان السلبى، لا يكون المرء معملا إرادته، بل يكون مستقبلا فقط للمعرفة أو للحالة الوجدانية. أما فى حالة المعرفة الإيجابية أو الوجدان الإيجابى، فإن المرء يكون فى حالة وعى وإدراك للموقف من جهة، كما يكون مريدًا لما يُقْبل على معرفته، أو لما يبدى الكراهية تجاهه.

وهناك فى الواقع تفاعل تبادلى فيما بين المعرفة والوجدان الإراديين. فالمعرفة الإرادية تغذى الوجدان الإرادى، كما أن الوجدان الإرادى يغذى المعرفة الإرادية. ولأضرب مثالاً بالموقف الذى أجد نفسى فيه حاليًا. فأنا بصدد تأليف هذا الكتاب، أجد أنى قبل الشروع فى الكتابة، قد أخذت أغوص بفكرى فى الموضوع الذى أُقْبل على التعبير عنه، أو المساهمة فى تقديم الجديد بإزائه. فأنا لا أترك نفسى على السجية، متقبلاً ما يصل إلى بصرى مما كتب فيه، أو ما يصل إلى

سمعى عندما أكون أحد المستمعين إلى محاضرة عن قوة الإرادة، وإنما أكون مركزًا ذهنى فى نطاق هذا الموضوع. وإذا قمت بقراءة شىء عنه فى مرجع أو أكثر، فإن قراءتى عندئذ تختلف جوهريًا عن قراءة شخص آخر يتصفح الكتاب نفسه أو المرجع نفسه، تاركًا نفسه للمصادفة التقبُّلية - إذا صح التعبير - فتصل إلى ذهنه بعض المعلومات أو لا تصل. ويكون الفرق بينى وبين شخص كهذا، كالفرق بين ضابط الشرطة الذى يقوم بمعاينة حادث تصادم بين سيارتين، وبين أحد المتفرجين من المارة. فبينما نجد أن ضابط الشرطة يُمْعن إراديًا فى الوقوف على الحقائق التى يتضمنها الموقف وملابسات الحادث، فإن المتفرِّج من المارة، يكون مجرَّد متفرج. وحتى إذا هو أصدر حكمًا بصدد ما يقع تحت بصره، أو ما يصل إلى سمعه، فإنه لا يكون مُجيلاً فكره بإمعان وتركيز وإرادة، بل يكون عابر سبيل ومجرد متأثر تأثيرًا سلبيًا بالموقف، تاركًا نفسه على السجية، أو لما يمليه عليه ذهنه غير المتمعِّن، وغير المقدِّم للطاقة الذهنية الإرادية فيما يشاهده أو يسمعه.

وحتى بالنسبة للجانب الوجدانى من شخصية المشاهد للحادث. فإنه يكون متسمًا بالتلقائية أيضًا. فهو قد يتأثر حتى لقد يذرف الدموع الساخنة لدى مشاهدته لجثة أحد المارة

وقد ارتطمت بها إحدى السيارتين اللتين اشتركتا فى الحادث. ولكن ما يبديه ذلك المشاهد من تأثر لا يكون إراديًا، بل يكون عفويًا. أما ضابط الشرطة فإن توظيفه لطاقته الوجدانية فى الموقف، يكون توظيفًا إراديًا. إنه يجعل من طاقته الوجدانية وقودًا يشعل به قدرته الذهنية على التركيز والتفكير والتعديل ورد المسببات إلى أسبابها. فهو لا يكون نهبًا لوجدانه، فيدفع به إلى الوجهة التى يريد، كما لا يكون تاركًا لنفسه حرية التعبير عما يحس به فى دخيلته من عواطف، بل يقوم بتوظيف مشاعره الوجدانية للموقف. فكما أن الجانب المعرفى لديه يقوم بتوظيف وجدانه كذا فإن وجدانه يقوم بتوظيف معرفته.

وهنا نستبين ما يرتبط بالمعرفة والوجدان الإراديين من غرضية أو هدفية. فأنا فى كتابتى لهذا الموضوع، أو تأليفى لهذا الكتاب أستهدف هدفًا محددا واضحًا، ولا تكون معرفتى أو وجدانى الذى أبذله فى الموقف لمجرد التفكير أو لمجرد الاستمتاع بما أفكر فيه أو بما أوجه عواطفى نحوه، وإنما أستخدم طاقتى الذهنية وطاقتى الوجدانية متحريًا فى هذا هدفًا محددًا واضحًا أبغى الوصول إليه وتحقيقه، وذلك بإخراجه من حيز التصورات الذهنية إلى الواقع المتمثل فى كلمات.

ومن المؤكد أنه كلما كان المرء أكثر إمعانًا فى الفكر، وأيضًا كلما كان أكثر حكمة فى توظيف طاقته الوجدانية فى سَبْر الأغوار والامتداد بالجذور المعرفية، كان التجسيد للأفكار على جانب أكبر من الدلالة وأكثر إبانة. وهذا من الأسباب الرئيسية التى تفرِّق كاتبًا عن آخر، بل وتفرِّق مريدًا فى مجال إرادى عن غيره من المريدين الآخرين. ولكن علينا ألا نغضى عن الخلفية الخبرية التى تأتت للمرء قبل ذلك. فكلما كانت تلك الخلفية الخبرية أكثر اتساعًا وتنوُّعًا وعمقًا، كانت الفرصة المتاحة له لإعمال إرادته المعرفية وإرادته الوجدانية أرحب وأكثر توافرًا.

ولكن على الرغم من إناطتنا الإرادة بالفكر والوجدان حتى يتسنى للمرء أن يَسْبُر الأغوار ويمتد بالجذور قبل تجسيد التصورات الذهنية فى أشكال وهيئات وصيغ بادية للعيان، فإننا لا نستطيع أن نُغْضى عن إرادة التنفيذ. فالواقع أن العمليات الأدائية التى يضطلع بها المرء ليعبِّر بها عن تصوراته الذهنية، تحتاج بدورها إلى ما أسميناه بإرادة التنفيذ. فلا يكفى توافر الإرادة المعرفية الإيجابية والإرادة الوجدانية الإرادية، بل لابد أيضًا من توافر هذا النوع الثالث من الإرادة الذى أسميناه بإرادة التنفيذ. فبتضافر هذه الأنواع الثلاثة من الإرادة، أعنى الإرادة المعرفية والإرادة الوجدانية

والإرادة التنفيذية، يتسنى التعبير الإرادى فى الواقع الحى.

ومما لا شك فيه أن الناس يتباينون بعضهم عن بعض بإزاء هذه الأنواع الثلاثة من الإرادة. فثمة أشخاص تتفوق لديهم الإرادة المعرفية، بينما يتفوق بعضهم الثانى بإزاء إرادتهم الوجدانية. وأخيراً قد يكون التفوق فى إرادة التنفيذ. ولكن مما لا شك فيه أن الشخص صاحب الإرادة القوية يجب أن تتوافر لديه هذه الإرادات الثلاث بنفس القدر بحيث يتحقق لديه ما يمكن أن نسميه بالاتزان الإرادى. ولكن لابد أن يكون ذلك الاتزان الإرادى قائماً على أساس متين من الأنواع الثلاثة من الإرادات.

والواقع أن سبر الأغوار والامتداد بالجذور، لا يقتصر على سبر أغور الوجود الخارجى والامتداد بالجذور المعرفية فى أعماقه فحسب، بل يعنى أيضاً سبر الأغوار الداخلية لما يشتمل عليه العقل البشرى والنفس البشرية من كنوز ونفائس معرفية. ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن ما بداخل المرء من كنوز ونفائس يفوق كثيراً ما بخارجه. وما يشهد بذلك هو أننا لا نقف على الوجود الخارجى مباشرة، بل نقف عليه من خلال دخائلنا، وعن طريق عقولنا، وما تم ترجمته من إحساسات فى المخ إلى صور إدراكية، وما تبع ذلك من عمليات

عقلية أخرى تقوم به المخيلة والفكر التجريدى، وما ينشأ عن ذلك من نظريات علمية أو مذاهب فلسفية أو أدب أو نحو ذلك من نتاجات معرفية.

وليس بخاف على أحد أن العلوم والفلسفات والآداب، بل والفنون على تباينها، إنما تعتمد على الرمز كأساس لا محيص عنه، ولا بديل له. فالكلمة المكتوبة أو المنطوقة والرقم أو الرمز أو الشكل المرسوم، إنما هى جميعًا عبارة عن رموز لأفكار أو مشاعر اعتملت بدخيلة المفكر أو الفيلسوف أو الأديب أو الفنان.

ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن إرادة سبر الأغوار والامتداد بالجذور قد نقلت ثقلها من الأشياء المحسوسة إلى عالم الرموز. وبتعبير آخر فإن الحضارة البشرية قد ارتكزت على الرموز لتسيطر بواسطتها على عالم المحسوسات. فبالرموز المتمثلة فى العلوم والفلسفات والآداب والفنون، صار الإنسان مسيطرًا على الوجود المحسوس. ومعنى هذا أن الإنسان المتحضر هو ذلك الإنسان الذى يتذرع بالرموز، ويجعل منها أدوات أو ذرائع لإعمال إرادته. فلا بد له أولاً وقبل كل شىء أن يتمكن منها ويستوعبها، ثم عليه بعد هذا أن يقيم علاقات ووشائج فيما بينها لم تكن معروفة قبل ذلك.

وبذا فإنه يضيف إلى الحضارة لبنات جديدة فى معمارها الهائل. وبذلك تتقدم الحضارة عَبْر التاريخ بفضل ما يتسلح به المتفوقون والعباقرة من أبنائها من إرادات معرفية ووجدانية وأدائية أو تنفيذية.

ولكن هذا لا يعنى أن جميع المتفوقين والعباقرة من أبناء الحضارة البشرية يعمِدون إلى البناء ويتحاشون الهدم، أو أنهم جميعًا يَرْنون إلى الخير ويحاذرون الشر. فالواقع أن من بين المتفوقين والعباقرة من ينضمون إلى صفوف الأخيار، بينما ينضم بعضهم الآخر إلى صفوف الأشرار. فالحضارة تجمع فى نطاقها ما هو لخير البشرية وما هو لشرها أيضًا. وحتى بالنسبة للأخيار من المتفوقين والعباقرة، فإن تفوقهم وعبقريتهم يمكن أن يحملا فى طياتهما الخير للبشرية من جهة، كما يحملون الشر لها من جهة أخرى. فالذين قاموا باختراع المحركات التى تعمل بالاحتراق قد نفعوا البشرية، لأن تلك المحركات هى التى تعمل بالمصانع وبوسائل المواصلات البرية والبحرية والجوية، ولكن تلك المحركات نفسها هى التى عملت على تلويث البيئة وتهديد حياة النباتات والأسماك والحيوانات والناس.

ولكن الواقع أن المتفوقين والعباقرة من أبناء الحضارة،

يشتركون جميعًا فى خصيصة واحدة هى سبر الأغوار والامتداد بالجذور المعرفية إلى آفاق المجهول، واستنطاق ذلك المجهول والوقوف على ما يضمه فى نطاقه من أسرار وخبايا. فهم يقعون على زوايا وعلاقات لم يتسن لأحد قبلهم الوقوع عليها أو استكناهها. وهم لا يكتفون بهذا، بل إنهم يقدّمون نظرات جديدة تَجُب بعض النظريات السابقة، بل إنهم يقدمون تفسيرات مستحدثة لبعض الظواهر الغريبة التى لم يجد السابقون عليهم تفسيرات لها. ومن المتفوقين والعباقرة من قدموا المخترعات التى كانت قبل اختراعهم لها تداعب خيال البشرية وتندرج فى نطاق الأساطير التى لا يعقل إحالتها إلى واقع يومى عادى، من ذلك اختراع التليفون والفاكسميلى والراديو والتليفزيون ونحو ذلك من مخترعات قدمها النوابغ بفضل اعتمال عقولهم وشحذ إرادتهم فكريًا ووجدانيًا وتنفيذيًا فيما انشغلوا به، وعكفوا عليه من تأملات ومحاولات.

وهناك فى الواقع مجالات كثيرة قام الإنسان بسبر أغوارها والامتداد بجذور فكره فى ربوعها وأنحائها. فنجد أولاً الوجود المادى، فجَال الإنسان وصَال فى عالم الفيزياء الظاهرة للعيان، أو التى تلتقطها الأذن وهى التى يطلق عليها اسم الماكروفيزياء، كما جَال وصال فى عالم الفيزياء التى لا

يمكن الوقوف على أنحائها إلا بمساعدة الأجهزة كالميكروسكوب العادى والميكروسكوب الإليكترونى وهى ما تسمى بالميكروفيزياء. ثم إن الإنسان سبر أغوار عالم النبات وعالم الحيوان وأخيرًا عالم الإنسان وانتهى فى السنوات الأخيرة إلى اكتشاف هندسة الوراثة، ويكون بذلك قد سبر أغوار الوراثة وهدم أسوارها ومؤثرًا فيها، وبذا فإنه يكون قد زاوج ووحدّ فيما بين البيئة والوراثة، أو قل إنه قد أحال مسرح الوراثة إلى واحد من مسارح البيئة.

ولكن اهتمام العلماء بالواقع البيولوجى للإنسان لم يَحُل دون اهتمامهم بالظواهر الروحانية، فأخذ علماء النفس يكرسون الجهد لمدارسة الحياة النفسية والحياة الروحية لدى الإنسان، بل ولدى بعض الحيوانات الراقية. فنجد أن البحوث التى تدور حول الظواهر الروحانية تتدفق يومًا بعد آخر إلى جانب البحوث التى تدور حول الظواهر النفسية مثل الأحلام والتوترات النفسية والأمراض النفسية كالوساوس والأعمال القهرية والهستيريا ونحوها.

والواقع أن سبر الأغوار والامتداد بالجذور المعرفية والحضارية المتباينة، قد يكون لذات المعرفة دون أن يأخذ الإنسان فى اعتباره ما قد يتأتى عن معرفته من فوائد، كما

أنه قد يكون لتحقيق أهداف مصلحية أو دفاعية أو علاجية. وفى الحالتين فإن المشتغلين بالمعرفة لذات المعرفة أو بالمعرفة لإحالتها إلى تكنولوجيا، يُعْمِلون إرادتهم وطاقاتهم الوجدانية والتنفيذية فيما يشتغلون به. ولا شك أنه كلما توافرت قوة الإرادة للمشتغلين فى هذه المجالات، فإن ما ينتهون إليه من نتاجات، يكون أكثر خصوبة وأكثر إتقانًا.

عدم الرضوخ أمام الصعوبات :

عرضنا فى الموضوع السابق لما أسميناه بإرادة التنفيذ، وذلك بعد أن عرضنا لنوعين آخرين من الإرادة : هما إرادة المعرفة وإرادة الوجدان. وفى هذا المقام نعرض لنوع جديد من الإرادة هو إرداة مقاومة الصعوبات وتحدى العقبات. ولقد نستطيع أن نسمى هذه الإرادة بإرادة العناد والتصميم. ونحن نعتقد أن هذا النوع من الإرادة، لا يقل فى أهميته عن أهمية الأنواع الثلاثة من الإرادة التى عرضنا لها، بل إنها تتكامل معها جميعًا بحيث لا نستطيع أن نصف الشخصية بأنها شخصية متكاملة إلا إذا توافرت لها هذه الأنواع الأربعة من قوة الإرادة. وحيث إن هذه القوى الأربع من الإرادة لا تتوافر للناس الأسوياء بالتساوى، بل تتفاوت وتتصف بالنسبية، لذا فإننا نستطيع بالتالى أن نقرر أن تكامل الشخصية هو أيضًا

من المسـائل النسـبيـة، فليس جـميـع أقـوياء الإرادة أو المتكاملين على الدرجـة نفـسـهـا مـن قـوة الإرادة ومن الـتكامل، بحـيث يتسنى لأقلهم حظًا من قوة الإرادة أو مـن التكامل أن ينخـرط فى زمرة أقوياء الإرادة والتكامل النفسى.

وليس من الشك فى أن الصـعـوبات التـى تعتـرض طريق المرء موجـودة وتتـفـاوت فـى كثـرتهـا وشـدتهـا من مـوقف لآخـر. ويخطئ من يعـتـقـد أن سـبـل الحـيـاة مـفـروشـة بالورود، وأن الشخصيات التى نجحت وتفوقت وبَزَّت غيرها، كان من حظها أنهـا لم تصـادف صـعـوبات اعـتـرضت طريق نجـاحـهـا وتفـوقـهـا وبَزِّها لغيرها. فـالواقـع أن سـر نجـاح تلك الشخـصيـات لا يكمن فى أن حيـاتها كانـت خلوًا من الصعوبات والعقبـات، بل فى أنها اتشحت وتمنطقت بإرادة العناد والتصدى للصعوبات والعقبات بالإضافة إلى تمتعها بالأنواع الثلاثة الأخرى من قوة الإرادة.

وإرادة العنـاد والتـصـدى للصـعـوبات والـعـقـبـات تبـدأ فـى النمـو بدءًا بالطفولة بشـرط أن يتوافـر المناخ المناسب لنمـوها. والمربى الحصيف هو الذى يوفر حول الطفل ما يتحدى إرادته التنفـيـذية بشـرط أن يكون التحـدى مـلائمًا لقـدرة الطـفل على المغـالبـة للانتـصـار على مـا يعـتـرض طريقـه من صـعـاب أو عـقـبـات. ويخطئ الآباء والأمـهـات الذين يزيلون الصـعـاب

والعقبات من طريق الطفل، ويجعلون طفولته كلها سهلة ميسورة. إنهم بهذا يقتلون فيه إرادة العناد والإصرار على التغلب على الصعاب والعقبات. وطبيعى أن طفلاً هذا شأنه يجد نفسه مهزومًا حائرًا عندما يجابه الصعاب فى مراحل عمره التالية، أعنى خلال مراهقته وشبابه وكهولته وشيخوخته. وما التدليل فى الواقع سوى إحاطة الطفل بكل ما يجعل حياته سهلة ناعمة، بحيث لا يكون بحاجة إلى بذل أى جهد للتغلب على صعوبة أو هزيمة أى عقبة في معترك حياته اليومية.

وبهذا الصدد يجب علينا أن نميِّز بين نوعين من الحب الذى يضفيه الكبار على الصغار. أما النوع الأول فهو يلبى رغبات الطفل. أما النوع الثانى فإنه يلبى حاجاته. قد تكون الحاجة متمشية مع الرغبة أو متطابقة معها، وقد تكون متعارضة معها، ونابية عنها. ومما لا شك فيه أن الطفل محتاج إلى بعض العقبات تعترض طريقه، وبحاجة إلى أن يُمعن فى قهرها والتغلب عليها وتذليلها. ولكنه بالطبع يكون بَرِمًا بتلك العقبات، أى أن حاجته إلى تلك العقبات تتعارض مع رغبته فى عدم وجودها على الإطلاق. فإذا ما عمد والداه أو الكبار من حوله إلى ملاشاة العقبات من طريق حياته وجعلها سهلة تمامًا، فإنهم بذلك يكونون قد وأدوا إرادته

النضالية التى أسميناها بإرادة التحدى، أو إرادة مقاومة الصعاب وتحدى العقبات.

ولعل أن يكون السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو : هل الطفل الذى لم تتح له فرصة استتبات الإرادة النضالية أو إرادة التحدى، سوف يظل محرومًا حتمًا من هذه الإرادة طوال حياته عبر مراحل عمره التالية ؟ الوقع أن هذا غير حتمى. والمسألة تتوقف على ما سوف يلقاه من تربية خلال المراهقة وما بعدها. ولكن من المقطوع به أن العوامل التربوية تكون أكثر نجوعًا خلال السنوات الأولى من العمر. وكلما تقدم المرء فى العمر، كان تأثير تلك العوامل أقل قوة وفاعلية. أضف إلى هذا أن هناك ما يعرف بالتربية التصحيحية، وهى التربية التى قد يمسك بزمامها الشخص نفسه دون ما حاجة إلى مساندة الآخرين له.

ومما لا شك فيه أن مدى حماس المرء لتصحيح ما سبق أن اعوج فى تربيته أو ما نقص لديه من مقومات شخصيته، يكون له أبعد الأثر فى تصحيح مسار حياته، وفى تعويضه عما فاته من عناصر أو مقومات تربوية، أو من نقص فى نمو إرادته النضالية أو إرادة التصدى والتحدى. بيد أن الحماس وحده لا يكفى لتعويض المرء عما فاته من تربية منذ نعومة

أظافره، أعنى تربية إرادته النضالية. فلا بد من مواكبة الحماس بتفهمٍ حقيقى للوضع الذى انتهى إليه المرء، والمستوى النمائى الذى قُيِّض لشخصيته. ولعلنا لا نخطئ إذا ماقررنا أن هناك ما يسمى بالوعى الذاتى، وهو عبارة عن مركَّب وجدانى عقلانى لا هو حماس بحت، ولا هو معرفة مجردة من الوجدان. إن إحراز المرء للوعى بذاته، أو بهذا المركَّب النفسى، يكفل له فى الواقع أن يحدث فى شخصيته طفرات نمائية بإزاء الجوانب التى يحس بأنها قد فاتته أو أنها ناقصة فى شخصيته.

فإذا ما أحرز المرء هذا الوعى، فإنه يكون إذن قد تسلح بالطاقة المناهضة والثائرة على ما استخدم معه من طرائق تربوية منذ طفولته حتى اللحظة الراهنة التى يعيشها. ولا غرو فإن التسلُّح بالسلاح الجديد، أعنى الوعى بالذات، يعمل على شحذ همته وإعداد الطاقة النفسية اللازمة له للتحدى والتصدى. وهذا التسلح ذاته هو التعبير النفسى عن قوة الإرادة. بيد أن هذا التسلُّح بهذه القوة أو الطاقة النفسية لا يخرج إلى حيز الواقع إلا باتخاذ المواقف التى تستحيل فيها هذه الطاقة النفسية التى جهزت إلى مواقف فعلية أو إلى سلوك مباشر.

والمرحلة الأولى لاعتمال هذه الطاقة يمكن أن نسميها بمرحلة «تحطيم الأصنام». ذلك أن المرء قبل تذرعه بالوعى، وقبل أن يعمد إلى إعداد الطاقة النفسية النضالية، يكون فى الواقع مستسلمًا لمجموعة من الإرادات التى كانت تكبِّله وتَحُول بينه وبين إعمال إرادته فى المواقف المتباينة. لذا فقد صار من ألزم اللزوم أن تكون نقطة البداية هى نقطة تحريرية من القيود والشكائم والأصفاد. والواقع أن النقطة التحريرية تتسم بأنها قفزة أو طفرة سلوكية من وضع استبسلامى لإرادات الآخرين إلى عصيان صريح وتحدٍّ لتلك الإرادات. والمتحدى فى هذا الموقف يشبه الطفل الهياب من القفز إلى الماء خَشْية أن يصاب بأذى أو أن يعرِّض نفسه للغرق، ولكنه بعد الكثير من التردد تواتيه الشجاعة التى لم يكن أحد يتوقعها فيستجمع شجاعته ويتحدى الخطر ويقفز بكل جرأة وإقدام لا يلوى على شىء، فيجد نفسه بعد ذلك غير هيَّاب من خطر تحدى الأمواج الهادرة والأنواء المزمجرة.

وواضح من تعرضنا لهذه المرحلة التى أسميناها بمرحلة « تحطيم الأصنام » أنها مرحلة سلبية. ذلك أن الموقف الذى يتخذه المرء فى هذه المرحلة هو موقف هدمى أو هو تخلُّص من الشكائم التى قيَّدت حركته، وحالت بينه وبين المقاومة أو التصدى للصعاب التى تحول بينه وبين تحقيق

أهدافه، وشق طريقه فى الحياة. بيد أن هذه المرحلة الهدمية تعتبر مرحلة جوهرية لأنها تعتبر التمهيد الضرورى للإقدام على الانخراط فى المرحلة التالية، أعنى المرحلة الإيجابية.

والواقع أن المرحلة الإيجابية فى مقاومة الصعاب والعقبات، وهى المرحلة التى عرفناها بأنها مرحلة التصدى والتحدى، تتشكل من عدد من المواقف أو الخطوات التى نستطيع تحديدها على النحو التالى :

أولاً - الخطوة التوقعية : فالشخص المتمتع بقوة الإرادة يبدأ بعد أن ينتهى من مرحلة التصدى والتحدى فى التذرع بنظرة مستقبلية توقعية. فهو يرى ردود الفعل المتباينة التى يمكن أن يتخذها أولئك الذين هدم أسوار خوفه منهم، وقضى على سطوتهم عليه، فصار فى فكاك من شكائمهم التى كانت تقيّد حركته وتقمع حريته. بيد أن التوقعات التى يترسّمها ذلك الشخص هى من قبيل الاحتمالات وليست من قبيل الحتم والجزم. ولكن صاحب الإرادة القوية يقوم شعوريًا أو لاشعوريًا بترتيب تلك الاحتمالات المتوقعة، فيكون ترتيبه لها من حيث القابلية الأكثر للوقوع ترتيبًا احتماليًا أيضًا. وهو قد يجعل فى ترتيبه لتلك الاحتمالات احتمالين أو أكثر على نفس المستوى من القوة الاحتمالية. وهو من جهة أخرى قد

يستبعد بعض الاحتمالات التى كان قد أخذها فى اعتباره، وذلك لأن ما تحمله من إمكانية الوقوع ضعيفة جداً بعد أن قام بمقارنتها بالاحتمالات الأخرى.

ثانياً - خطوة ردود الفعل : وبعد أن ينتهى صاحب الإرادة القوية من الخطوة التوقعية، فإنه يبدأ فى إعداد نفسه لردود الفعل المتباينة التى يتسنى له تقديمها بإزاء الاحتمالات التى يكون مستعداً لبذلها وتوجيهها فى اللحظة التى تبزغ فيها الاحتمالات المتوقعة، وهى الاحتمالات التى يمكن أن تَصْدر عن الشخصيات التى قام بتحطيم الأصنام التى تشكلت فى قوامه النفعى بإزائهم. فردود الفعل التى تصدر عنه مقابل كل احتمال من الاحتمالات التى توقعها، يجب أن تكون جاهزة نفسياً لديه قبل أن تتجسد سلوكاً بادياً للعيان. فواقع الأمر أن السلوك المتحقق والتجسد والبادى للعيان، يكون فى الحقيقة بمثابة ترجمة لسلوك داخلى مترسَّماً فى الذهن، ومهيأ بالوجدان، ومتوافراً فى القوام النزوعى للمرء. فإن لم يكن هناك رصيد بدخيلة المرء يكون قابلاً للتجسيد فى خارجيته، فإن ذلك التجسد السلوكى يكون متعذراً . فنحن نعد أنفسنا بالداخل قبل أن نسلك فى الخارج.

ثالثاً - خطوة الدعم الخارجى : ولمساندة الخطوة

السابقة الخاصة بردود الفعل، يكون على صاحب الإرادة القوية أن يأخذ فى استمداد الدعم من الخارج. ولقد يكون الدعم الخارجى مستمداً من بعض الأصدقاء، كما أنه قد يكون مستمداً من مصادر المعرفة، أو من مصادر المعلومات، كما أنه قد يكون مستمداً من الخبرات السابقة التى مرت على الشخص نفسه وقد نسيت أو بحاجة إلى الرجوع بصددها إلى المذكرات والوثائق ونحو ذلك. فالرجوع إلى تلك المصادر يشكل أداة أو سلاحًا قويًا سوف يكون له شأن فى تذليل العقبات والتغلب على المشكلات التى تحول بين المرء وبين تحقيق أهدافه وشق طريقه إلى النجاح فى الحياة. والواقع أن كثيرًا من أقوياء الإرادة يقعون فى فخ الغرور، وذلك بأن يكتفوا بما يتسنى لهم إحرازه من اللحظة الراهنة أو بما فى حوزتهم الشخصية، فلا يلقون بالا إلى المصادر الخارجية التى يتسنى لهم الأخذ عنها والاستعانة بها واستلهام قوتها. والكثير منهم يترفعون عن الاستعانة بغيرهم وجمع الأعوان إلى صفوفهم. وبالتالى فإنهم يفشلون فى شق طريقهم فى الحياة بنجاح، وذلك برغم قوة إرادتهم. فتجميع الصفوف، واستلهام المصادر الخارجية، والتذرع بمصادر المعرفة، لا يُعَد من الكماليات التى يمكن الاستغناء عنها، بل تكون ضرورية فى كثير من المواقف للتغلب على الصعاب، وقهر المشكلات.

والإطاحة بالعوائق التى تقف فى طريق المرء.

رابعًا - الخطوة التنفيذية : وتأتى بعد ذلك الخطوة التنفيذية أو الأدائية التى يعبر المرء من خلالها عما سبق له تجهيزه لمجابهة الموقف. والواقع أن الشخص الذى يبدأ بالتنفيذ قبل أن يمر على الخطوات الثلاث السابقة، لا يكون موفَّقًا فى التغلب على الصعاب وقهر المشكلات برغم قوة إرادته. بيد أن هناك من الناس من يختزلون الوقت، ويضغطونه ضغطًا شديدًا بحيث لا تكاد تستغرق منهم الخطوات الثلاث السابقة سوى وقت قصير للغاية لدرجة أن الناس المحيطين بهم لا يكادون يستبينون مرورهم فى الخطوات الثلاث التى عليهم أن يمروا بها قبل إقدامهم على التنفيذ. وقد يمر البعض من أقوياء الإرادة فى الخطوات الثلاث السابقة على التنفيذ بطريقة لا شعورية. فهم يُعِدون أنفسهم لا شعوريًا فيكونون بهذا على استعداد دائم ومستمر للانخراط فى الخطوة التنفيذية بغير أن يكونوا بحاجة إلى صرف الوقت وهُم فى حالة وعى بما يعدُّونه للخطوة التنفيذية.

خامسًا - الخطوة النقديَّة : الواقع أن هذه الخطوة تتدخل مع الخطوة التنفيذية، فيبدأ المرء فى تقييم ما يتم

تنفيذه أولاً بأول. والتقييم يكون متواكبًا مع التقويم، بمعنى التعديل وإصلاح ما اعوج أو انحرف عن الخط الواجب الاتباع فى التنفيذ. فبعد الانتهاء من الخطوة التنفيذية بالكامل، فإن التقييم يتخذ لنفسه وجهة جديدة هى تناول الموقف من جميع زواياه والنظر إلى الواقع النفسى الداخلى والواقع الموضوعى الخارجى بنظرة شاملة غير مجتزئة بحيث يصدر الحكم شاملاً لشخصية المرء وللنتائج التى تأتت عن التنفيذ جميعا. وغنى عن القول أن هذه الخطوة التقييمية التقويمية تشكل مرحلة استعدادية لما سوف يتخذه المرء بعد ذلك من مواقف ومن تصرفات. فلقد يجد نفسه فى ضوء هذا التقييم الشامل قد انحرف إلى التهور أو إلى شىء من التخاذل، أو أنه لم يبذل الجهد الكافى أو أنه لم يوزِّع طاقاته النفسية التوزيع العادل فيعدِّل من موقفه فى المستقبل.

التكيف المستمر لظروف الحياة :

إن الكائنات الحية باختلاف مستوياتها وتعقيدها ورقيها قد استعانت بمبدأ التكيف البيولوجى حتى يتسنى لها أن تستمر على قيد الحياة. ذلك أن الهلاك يكون نصيبها وقَدَرها إذا هى لم تأخذ بهذا المبدأ، سواء بالإهمال أم بالعجز. بيد أن مبدأ التكيف يتنوع ويتخصب بالنسبة للكائنات الحية الأكثر

رقيًا أو تطورًا. فبالنسبة للإنسان - وهو أكثر الكائنات الحيةرقيًا وتعقيدًا - فإن التكيف يتخذ لديه معانى أخرى إلى جانب المعنى البيولوجى لعلنا نحددها على النحو التالى :

أولاً - المعنى الوجدانى : فلدى الإنسان القدرة على التكيف وجدانيًا مع الأفراد والجماعات. وهناك ما يسمى بالتناغم الوجدانى، وهو انتشار الحالة الوجدانية بين أفراد المجموعة مثلما تنتشر الكهرباء فى الأسلاك الموصَّلة بعضها ببعض. والواقع أن الإنسان ليس وحده الذى يتمتع بقابلية التكيف الوجدانى، بل إن الحيوانات الراقية جميعًا لديها هذا النوع من التكيف بدرجات متفاوتة. بيد أن الإنسان يعتبر أكثر الكائنات الحية قدرة على التكيف الوجدانى برغم وجود بعض العوائق التى قد تَحُول دون حدوث ذلك التكيف مثل القيم التى تشرَّبها والتربية التى تلقاها فى مجتمعه الأصلى، إذا كان قد قدِّر عليه أن ينتقل من ذلك الموطن الأصلى إلى موطن جديد. ولكن الواقع أن تلك العوائق لا تقلل من قدرة الإنسان على التكيف الوجدانى. فالكثير من القيود أو العوائق الوجدانية تنحنى أمام إرادة المرء. فأصحاب الإرادة القوية يتسنى لهم التغلب على تلك الصعاب، ويعبِّرون عن قدراتهم على التكيف وجدانيا إذا هم انخرطوا فى مجتمعات جديدة لم يسبق لهم أن عايشوها أو انخرطوا فيها.

ثانياً - المعنى العقلانى أو المعرفى : وعلى النحو نفسه فإن صاحب الإرادة القوية يستطيع أن يتكيف عقلانيًا أو معرفيًا. فهو بقوة إرادته الذهنية يستطيع أن يحدث تفاعلات عقلانية أو معرفية بين ما سبق أن اكتسبه من معرفة، وما ضرب فى إثره من طرائق فى التفكير. وبين ما يشيع حوله من معارف جديدة، أو ما يصادفه من مناهج جديدة فى التفكير، بحيث لا يأتى تكيفه للجديد مثل تكيُّف الحرباء للألوان التى تحيط بها، بل يأتى تكيُّفه بطريقة تفاعلية. فهو يقيم بينه وبين الأفكار الجديدة وطرائق التفكير التى لم يسبق أن كان له عهد بها قنطرة يمر عليها، فيحدث التفاعل بينه وبينها. ويتأتى عن ذلك التفاعل فكر جديد ومنهج جديد للتفكير يختص به ويحاول نقله إلى المحيطين به، مثلما فعل ديكارت وغيره من فلاسفة أو مفكرين استطاعوا أن يتكيَّفوا إيجابيًا بإزاء المعرفة وطرائق التفكير لا بالتشرب، بل بالتفاعل الإيجابى.

ثالثاً - المعنى الكلامى أو التعبيرى : فصاحب الإرادة القوية يستطيع أن يُحْدث تفاعلات مستمرة بين حصيلته الكلامية أو التعبيرية وبين ما يصادفه حوله. ونحن نُؤْثر استخدام لفظ « كلام» أو لفظ «تعبير» على لفظ « لغة» لأن الكلام أو التعبير أشمل لأنه يتسع للدلالة على الانفعالات

التى قد لا تنخرط فى إطار أى لغة. والتعبير قد يكون بالحركة والإيماءة والملامح والأوضاع التى يتخذها الجسم. والواقع أن الشخصية التى تتمتع بقوة الإرادة، تكون خليقة بالتفاعل كلاميًا وتعبيريًا أكثر من الشخصية صاحبة الإرادة الضعيفة. فصاحب الإرادة القوية يستحث ما لديه من استعدادات كلامية وتعبيرية، ويقوم بتوظيفها فى عمليات التفاعل الكلامى والتعبيرى أحسن توظيف وأفعله. وإنك تلاحظ أن صاحب الإرادة القوية لا يكون تقبليًا أو امتصاصيًا فى تكيُّفه الكلامى أو التعبيرى، بل يكون إيجابيًا أيضًا. ذلك أنه لا يكون مقلِّدًا ما يصل إلى سمعه من كلام، أو ما يقع عليه بصره من وسائل تعبيرية، بل إنه يستحدث الجديد، ويعبِّر عنه، ويقوم بتجربته فى المواقف المتباينة، ويكون مقْدامًا فى هذا الصدد، فيتذرع بالجرأة والشجاعة وذَبِّ الخجل عن نفسه، فيكون صاحب اتجاه تكيُّفى تفاعلى وابتكارى، وليس مجرد ناقل عن غيره، أو ممتصًا ما يصل إلى سمعه أو ما يقع تحت بصره من تعبيرات بالحركات والملامح وغير ذلك مما يقع تحت البصر، ويتم إدراكه بالرؤية فى تصرفات الآخرين.

رابعًا - المعنى الأخلاقى : إننا فى الواقع نمتص القيم الأخلاقية من المجتمع الذى نشأنا به، ولكن صاحب الإرادة

القوية يعمِد شعوريًا أو لا شعوريًا إلى غربلة القيم التى قام بامتصاصها فى طفولته. ومن الطبيعى أن صاحب الإرادة القوية ينفتح على آفاق واسعة من القيم التى تتباين عن القيم التى نشأ عليها، ويأخذ فى امتصاص قيم بديلة، بل يقوم بعمليات تفاعلية فيما بين قيمه القديمة وبين القيم الجديدة. وفى أثناء هذه العمليات التفاعلية فإنه يَخْلُص إلى قيم معبرة عن نتائج تلك العمليات التفاعلية. صحيح أن جانبًا من القيم القديمة التى امتصها منذ طفولته تظل كما هى فلا تنخرط فى نطاق العمليات التفاعلية، ولكن باقى القيم التى تدخل فى الإطار التفاعلى لا تظل كما كانت عليه قبل التفاعل، بل تتخذ لنفسها صيغة جديدة بل وخصائص غير مسبوقة. من هنا فإنك تجد الشخص صاحب الإرادة القوية لا يكون مجرد حامل للقيم التى تلقاها منذ طفولته، بل إنه يُعمِل إرادته فيها. فهو ليس إسفنجى الاتجاه أو الموقف، بل إنه شخصية فاعلة ومتفاعلة لا تركن إلى الامتصاص فحسب. ومعنى هذا فى الواقع أن صاحب الإرادة القوية يكون صادرًا فى سلوكه الأخلاقى عن ذات نفسه، ولا تكون أحكامه الأخلاقية مجرد صدى لما سبق أن تلقاه عن الآخرين فى طفولته ومراهقته وشبابه، بل يكون هو المؤلف لخطوط سلوكه الأخلاقى بمعنى الكلمة. فهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيما يعتمل فى

قلبه من اتجاهات، وفيما يفوه به من كلام، وفيما يصدر عنه من تصرفات. والتكيف الأخلاقى فى حياةصاحب الإرادة القوية لا يتسم بالمطابقة بين سلوكه وسلوك الآخرين من حوله، بل إن تكيفه هذا يتسم بالتقدمية، بمعنى أنه يكون متكيفًا لسلوك الآخرين إذا هم انخرطوا فيما انخرط هو فيه من تفاعلات خبرية. فإذا ما ظهر نوع من التعارض بين ما يأخذ به من ألوان سلوكية أخلاقية وبين ما يأخذ به الآخرون، فإن هذا يرجع فى الواقع إلى تخلُّف أولئك الآخرين عن القيام بالتفاعلات الخِبْرية بين أخلاقهم التى امتصوها منذ نشأتهم وبين ما صادفوه من ألوان سلوكية أخلاقية متباينة لدى غيرهم. فالفرق بينه وبينهم، هو أنهم أخذوا أنفسهم بالتكيف التطابقى، بينما أخذ هو نفسه بالتكيف التفاعلى، أى بما يجب أن تنتهى إليه القيم الأخلاقية بعد انخراطها فى التفاعلات الأخلاقية الخِبْرية.

خامسًا - المعنى الحضارى : الواقع أن الحضارة فى تدفُّق مستمر، ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن الحضارة تتقدم وَفْقًا لمتتالية هندسية، وليس وفقًا لمتتالية حسابية. والواقع أن التضاعف الحضارى يحدث كل خمس سنوات على الأكثر، بمعنى أن المستحدثات الحضارية تكون ضعف ما كانت عليه منذ خمس سنوات مضت، وأنها ستصير أيضًا ضعف ما

عليه حالها اليوم بعد خمس سنوات مقبلة. ويترتب على هذا فى الواقع أن التطورات الحضارية تتحدى الإنسان الحديث. والمعادلة الصعبة التى تعترض طريق الإنسان الحديث، هى كيفية التوافق أو التكيف للحضارة الحالية من جهة، وكيفية التكيف مع التطورات الحضارية المتدفقة بسرعة من جهة أخرى. فثمة ما يسمى بالتقادم الحضارى. فما يكاد المرء يتخرَّج فى الجامعة أو المعهد الفنى، ويكون قد استوعب ما أفرزته الحضارة فى مجال تخصصه - على أحسن تقدير- حتى يجد نفسه بعد تخرجه مباشرة، وقد وجد أن الحضارة قد سبقته بمسافة ليست بالقصيرة. بل ويجد أن الكثير جداً مما قضى الوقت والجهد فى اكتسابه، قد أصابه التقادُم، ولم يَعُد ذا قيمة على الإطلاق. ومن هنا فإنك تجد المؤسسات تحاول مجابهة هذا الموقف بإنقاص العمر الذى يحال فيه المرء إلى التقاعد، وذلك لأن كبار السن لا يتسنى لهم ملاحقة التدفقات الحضارية، وبالتالى فإنهم يفشلون فى التكيُّف لما تقوم الحضارة بإفرازه من مستحدثات جديدة. وواضح أن أصحاب الإرادة القوية وحدهم هم الذين يثبتون فى معركة البقاء، وذلك بفضل تطوير أنفسهم باستمرار، ودأبهم الذى لا يتوقف، بحيث لا يفوتهم قطار الحضارة، ولا يتركهم خلفه صرعى التخلف الحضارى. وعدم ملاحقة التطورات الحضارية التى تقع فى مجال نشاطهم.

ويحسن بنا بعد هذا أن نقوم باستعراض العوامل التى تساعد الشخص قوى الإرادة فى تحقيق التكيف المستمر لظروف الحياة المتغيرة :

أولاً - مرونة الشخصية : فالواقع أنه كلما كانت الشخصية أكثر مرونة، كانت بالتالى أكثر قابلية للتكيف للمتغيرات التى تقع حولها أو بعيداً عنها. والشخصية المرنة هى الشخصية المنفتحة على الواقع الخارجى بحيث يكون فى مقدورها أن تلتقط ما ينحو إليه الخارج من تغيرات ومن انتحاءات جديدة. وهذا على عكس الشخصية الجامدة التى لا تستطيع أن تقف على التغيرات المتلاحقة التى تحدث حولها أو بعيداً عنها. ذلك أن الشخصية الجامدة تظل تضرب فيما اعتادت عليه بحيث لا تتمتع بالتطور، أو بأن تختط لنفسها خطة جديدة فى الحياة. ومما لا شك فيه أن الشخصية المرنة هى فى الوقت نفسه الشخضية التى لديها استعدادات للتفاعلات الخِبْرية، وبالتالى الاستعداد للتكيف للظروف والمواقف المتغيرة والمتلاحقة.

ثانياً - القدرة على الوقوف على الاتجاهات والآراء المغايرة : فمن العوامل التى تساعد صاحب الإرادة القوية على التكيف للظروف والمواقف الجديدة، قدرته على الوقوف على الاتجاهات المغايرة لاتجاهاته، وتفهُّم الآراء المناهضة لآرائه.

فالواقع أن قدرة المرء على الوقوف على ما يخالفه وينبو عما يضرب فى إثره، لما يكسبه قدرة خاصة لا تواتى كثيرًا من الناس الذين لا يتمكَّنون من الوقوف إلا على ما يقتنعون به ويتخذونه نبراسًا لحياتهم. والواقع أن غالبية الناس لا يفرِّقون بين ما يقتنعون به وبين ما يؤمنون به ويعتقدون فيه. فلا فارق عندهم بين الاقتناع والاعتقاد، بل إن كل ما يقتنعون به يعتقدون فيه، ولا يقبل التعديل بأى حال من الأحوال.

ثالثًا - الذكاء الاجتماعى : هناك نوعان من الذكاء : أحدهما يسمى الذكاء العقلانى، والآخر يسمى الذكاء الاجتماعى. والواقع أن صاحب الإرادة القوية يكون متمتعًا بمستوى مرتفع من هذين النوعين من الذكاء. بيد أن تمتعه بالذكاء الاجتماعى يلعب فى حياته وعلاقاته أدوارًا هامة للغاية، وبخاصة فيما يتعلق بالقدرة على التكيف المستمر لظروف الحياة المتباينة والمتغيرة باستمرار. فالذكاء الاجتماعى يساعد المرء على الوقوف على العلاقات الاجتماعية المتباينة، كما أنه يساعده على تفهم ما يعتمل فى قلوب الآخرين من اتجاهات نفسية، ومن ميول مختلفة. والتمتع بالذكاء الاجتماعى المرتفع، يستطيع أن يحوِّل المواقف الاجتماعية المتباينة لصالحه. ولعلنا نقول إن هذه القدرة على التغيير فى مواقف الآخرين وفى العلاقات الاجتماعية وفى اتجاهات

الناس وما ينتحون إليه من اتجاهات، تُعَد الجانب الإيجابى لهذا النوع من الذكاء. إذن فالذكاء الاجتماعى لا يقتصر على الجانب المعرفى، بل يتخطى هذا إلى الجانب الإرادى أو الجانب التعديلى فى المواقف. وفى تحويل الأحداث إلى وجهات يريدها صاحب الذكاء الاجتماعى.

رابعًا - القدرة على اكتساب عادات جديدة : هناك فى الواقع أشخاص لديهم قدرة على إلغاء بعض العادات التى سبق لهم اكتسابها، وإضافة عادات جديدة لم يكن لهم عهد بها قبل اكتسابها. وهناك فى الواقع خمسة أنواع من العادات : العادات الحركية، والعادات الوجدانية، والعادات الكلامية، والعادات العقلية، وأخيرًا العادات الاجتماعية. وكلما كان المرء صاحب إرادة قوية، فإنه يكون خليقًا بأن يعمل على إطفاء بعض العادات التى اكتسبها من جهة، وعلى تعديل بعض عاداته من جهة ثانية، ثم اكتساب عادات جديدة لم يكن قد اكتسبها قبل ذلك من جهة ثالثة. ولعل من أهم العادات التى تحتل مركز الصدارة اليوم فى الحضارة الإنسانية الحديثة، هى تلك المهارات الحركية التى تتعلق باستخدام الأجهزة المختلفة كالآلة الكاتبة والكومبيوتر والآلة الحاسبة ونحوها. والفرق بين صاحب الإرادة القوية وبين ضعيف الإرادة يتبدى فى مدى القدرة على ملاحقة التطورات الحضارية المتدفقة

والمتلاحقة. فصاحب الإرادة القوية يستمر فى النمو المهارى بدون توقف على الإطلاق.

خامساً - النزعة الإبداعية : شاع فى أذهان كثير من الناس أن القدرة على الإبداع، لا تتوافر إلا لصفوة من الناس الموهوبين، وأن الناس العاديين لا يتسنى لهم الإبداع فى أى مجال بأى حال من الأحوال. والواقع أن جميع الناس الأسوياء يتمتعون بإمكانية الإبداع لولا الظروف الاجتماعية التى تحيط بهم، وبخاصة التربية التى تلقوها منذ طفولتهم الباكرة. ذلك أن العقيدة التربوية السائدة بالغالبية العظمى من المجتمعات، تنحو إلى تشريب الناشئة التراث الثقافى الذى تحددت قَسماته تفصيلياً. وأكثر من هذا فإن الغالبية العظمى من الآباء والأمهات والمعلمين يعمدون إلى مقاومة أى لمحة إبداعية تبزغ فى سلوك الأطفال. ولعل أمضى سلاح يستخدمونه فى مقاومة النزعة الإبداعية هى سلاح السخرية والاستخفاف بما يبدعه الناشئة. ولعلنا نقول إن أصحاب الإرادة القوية وحدهم من الناشئة، هم الذين يستمرون فى شق طريقهم نحو الإبداعية، والضرب صفحًا عما يبديه الكبار أو الثقات من استخفاف وسخرية بهم. والواقع أن الإبداعية هى أرقى مستوى من التكيف الاجتماعى لأنه تكيف مستقبلى بمعنى الكلمة.

***

الفصل الثانى

مراحل العمر وقوة الإرادة

مراحل الطفولة وقوة الإرادة:

من الخطأ أن نتناسى المرحلة الجنينية التى يقضيها الجنين فى بطن أمه لمدة تسعة أشهر، وفى بعض الحالات سبعة أشهر، أو ثمانية أشهر. فالواقع أن الجنين فى بطن أمه ومنذ اللحظة الأولى التى يتكون فيها، وهو يُعمِل إرادته اللاشعورية. فليس هناك من ينكر أن الجنين فى أحشاء الأم يُشَكِّل قوامًا قائمًا برأسه، وأنه يمثِّل قُطبًا فى مقابل القطب الآخر المتمثل فى الأم التى تحمله. وإرادة الجنين فى بطن أمه هى إرادة الحياة، والنضال من أجل اكتمال النضج، حتى المستوى الذى يسمح له بأن يستقل عن أحشاء أمه، والنزول إلى البيئة الطبيعية التى تختلف اختلافًا بيِّنًا عن البيئة الحشوية، أعنى بطن الأم. ولعلنا لا نخطئ إذا ما زعمنا أن قوة الإرادة اللاشعورية، تختلف من جنين لآخر لدرجة أن تلك الإرادة قد تكون أضعف من أن تستمر فى النضال من أجل البقاء، ومن أجل استمرار النمو حتى لحظة الميلاد، فلا

يستطيع ذلك الجنين أن يظل على قيد الحياة، بل يموت وهو ما يزال فى بطن أمه، ولا يكون من سبيل لإخراجه والتخلص منه إلا بواسطة مشرط الجراح الذى يجرى العملية الجراحية التى عرفت باسم العملية القيصرية.

والنضال من أجل البقاء واستمرار النمو بطريقة لاشعورية، يظل قائمًا ومستمرًا حتى بعد أن يولد الطفل ويخرج إلى عالم الناس والأشياء. ولعلنا نزعم أن قوة الإرادة اللاشعورية تظل تعمل عملها عَبْر الأعمار المتتابعة حتى الشيخوخة، ولكن بنسب متفاوتة. فمن منا يستطيع أن ينكر أن المرء فى أى عمر لا يستعين لا شعوريًا بقوة إرادته وهو غائص فى أعماق لا شعوره أثناء النوم، أو وهو تحت تأثير التخدير إذا ما أجريت له عملية جراحية ؟ يقول لنا الجراحون إنه لولا استمرار تشبث المريض بالحياة، وإعمال قوة إرادته لاشعوريا وهو تحت تأثير المخدر لما استطاع إذن أن يفيق من تأثير المخدر، ولكانت نسبة عالية جدًا من المرضى قد ماتوا فى أثناء إجراء العمليات الجراحية لهم.

والواقع أن فصل اللاشعور عن الشعور فصلاً تامًا، كما لو أن هناك تناقضًا بين هذين الطرفين، يبعد بنا عن الحقيقة. ذلك أن العلاقة بين اللاشعور والشعور كالعلاقة بين الظلام

والنور. فهناك تضاد بينهما وليس تناقضًا. فكما أن الظلام الدامس يتضمن بعض النور، كذا فإن المرء وهو غائص باللاشعور، يكون متضمنًا لقدر ما من الشعور. ونستطيع أن نقرر أكثر من هذا أن الشعور ينبثق من لُجَّة اللاشعور، وذلك كانبثاق الجليد من الماء، أو كانبثاق النار من الخشب إذا ما تم اشتعاله. وانبثاق الشعور من اللاشعور فى حياة الطفل يتأتى تدريجيًا وليس طفرة واحدة. ولكن مهما حصل الطفل على قدر من الشعور، فإن كمية اللاشعور فى حياته اليومية تزيد بلا شك عن كمية الشعور لديه. فإذا نحن أخذنا فى اعتبارنا أن الطفل فى نعاسه يكون غائصًا فى لجة اللاشعور، فإن علينا أن نضيف إلى هذا أيضًا الفترات التى يقضيها وهو غائص فى أحلام اليقظة.

وعلينا ألا ننسى أن ما يقوم الطفل باستهلاكه من قوة إرادته وهو فى حال اليقظة وفى الأوقات التى يكون فيها فى كامل شعوره، إنما يتجدد ويجد تعويضًا عنه فى أثناء النوم، وفى أثناء الانخراط فى أحلام اليقظة. فإذا صح ما نزعمه هما، فإننا نستطيع أن نؤكد أن الفترات التى يقضيها المرء فى النوم أو فى أحلام اليقظة، ليست فترات ضائعة من حياته. فالطفل خلال نومه وخلال أحلام اليقظة يجدد إرادته، فيكون مستعدًا بعد انخراطه فى حال الشعور لاستثمار قوة

إرادته التى استرجعها فى أثناء انخراطه فى اللاشعور.

بيد أن الانخراط فى اللاشعور لا يضمن التجديد المنشود لقوة الإرادة. ذلك أن هناك نوعين من اللاشعور ينخرط المرء فيهما : النوع الأول - هو اللاشعور الإيجابى، والنوع الثانى - هو اللاشعور السلبى. وهذا النوع الأخير من اللاشعور يكون مُجْهِضًا لقوة الإرادة. فلقد يقضى أحد الأطفال ليله وهو يعانى من الأحلام المزعجة، أو وهو فى حالة من الخوف والهلع والتوتر الشديد، فلا يكون انخراطه فى هذا النوع السلبى من اللاشعور عاملاً على استعادة ما فقده من قوة إرادته وهو فى حال الشعور أو اليقظة، بل إنه على العكس من ذلك يكون عاملاً على تقويض ما لديه من البقية الباقية من قوة إرادته. أما انخراط الطفل فى حال اللاشعور الإيجابى - وهو اللاشعور السوى أو البنَّاء - فإنه بلاشك يشكِّل مقوِّما أساسيًا أو رادفًا رئيسيًا لقوة الإرادة، بحيث يكون قد عوض نفسه عما سبق أن فقده فى أنشطته الشعورية السابقة.

ومما لا شك فيه أن قوة الإرادة خلال مرحلة الطفولة ككل، تتباين من حيث الكم وأيضًا من حيث الكيف عنها خلال مراحل العمر التالية. وحتى بالنسبة لسنوات الطفولة، سواء سنوات الطفولة الأولى خلال السنوات الخمس الأولى من

العمر، أم خلال الطفولة الثانية التى تمتد بعد الطفولة الأولى حتى المراهقة، فإن قوة إرادة الطفل تتباين من حيث الشدة من جهة، ومن حيث الكيف، أعنى من حيث المجالات التى تستثمر فيها قوة الإرادة من جهة أخرى. فقوة الإرادة خلال السنوات الأولى من الطفولة تتبدى فى اللعب بالدُمَى واللعب مع الأطفال الآخرين والكبار على السواء. أما فى الطفولة الثانية فإن مجالات جديدة تنفتح أمام الطفل لإعمال قوة إرادته فيها، ومن أهمها ما كان متعلقًا بالدراسة المنتظمة، سواء بالمدرسة أم بالبيت.

وعلى الرغم من أن الإرادة تخضع للتدريب الذى يَلْقاه الطفل بالبيت والمدرسة، فإن هناك ركيزة فسيولوجية علينا ألا نُغفلها. تلك الركيزة تتمثل فى نشاط المخ، فثمة بالمخ نشاطان أساسيان هما النشاط الاستثارى excitatory من جهة، والنشاط الكفى exhibitory من جهة أخرى. والنشاط الاستثارى مسئول عن الإتيان بأنشطة معينة. فإقبال الطفل على الدراسة بعد التحاقه بالمدرسة، يكون شاهدًا على استثماره للنشاط الاستثارى بالمخ. أما امتناعه عن الغش أو عن السرقة أو عن الكذب، فإنه ينهض شاهدًا على استثماره للنشاط الكفى.

ونحن نؤمن بالتفاعلية فى تفسير النشاط الإنسانى بجميع مستوياته وأنواعه. فالتربية تتعانق مع الفسيولوجيا وتتفاعلان بعضهما مع بعض، بحيث يتأتى عن تفاعلهما مركَّب سلوكى لا نستطيع أن نميِّز فيه بين ما للفسيولوجيا وما للتربية. والمركب. السلوكى شبيه بالمركّب الكيميائى الذى لايتسنى تمييز مقوماته بعضها من بعض مادامت داخلة فى نطاق المركب وكلما كانت التربية على جانب كبير من الجودة، كانت بالتالى خليقة بأن تستثمر طاقة المخ الاستثارية وطاقته الكفية. ولكن التربية الرديئة تعمل على إفساد ما أهِّل به المخ.

وهناك نوعان من الحكم على قوة الإرادة، سواء خلال الطفولة أم خلال الأعمار التالية جميعًا. فهناك الحكم السيكولوجى من جهة، وهناك الحكم الأخلاقى من جهة أخرى. فالحكم السيكولوجى يركز على قوة الإرادة بغض النظر عما تستخدم فيه تلك الإرادة. فالطفل قد يتخذ من العناد منفذًا يعبِّر من خلاله عن قوة إرادته. وقد ينصَبُّ عناده على الصعاب التى يجدها مقيِّدة لنشاطه أو ابتكاره، كما أن عناده قد يكون موجهًا ضد والديه ومعلميه. ففى الحالة الأولى يكون الحكم الأخلاقى بالمدح، بينما يكون فى الحالة الثانية بذم سلوك ذلك الطفل، ولكن الحكم السيكولوجى يحصر اهتمامه فى قياس قوة الإرادة، بينما يتوقف عن

إصدار أى حكم خلقى. وأكثر من هذا فإن بعض أنواع السلوك التى تَلّقى ترحيبًا واستحسانًا من جانب الكبار، قد يكون الحكم السيكولوجى بإزائها فى غير صالح الطفل. فلقد تكون إرادة الطفل ضعيفة، فيركن إلى المحيطين به يسيِّرونه وَفْق مشيئتهم فى الصغيرة والكبيرة، فيوصف بأنه طفل طيب، بينما يكون فى الواقع واهن الإرادة فينشأ شخصية غثة لا رأى لها ولا وزن.

وهناك ثلاث زوايا تقاس قوة إرادة الطفل منها : أما الزواية الأولى فهى زاوية الأنداد، أعنى علاقة الطفل بمن فى سنه، أو فى فصله من أطفال آخرين. أما الزواية الثانية فهى زاوية من يصغرونه سنًا أو هم فى سنوات دراسية أقل من صفه. أما الزاوية الثالثة فهى زاوية من يكبرونه سنًا، أو من يتقدمون عليه فى الدراسة. ولا يكفى أن يحكم على طفل ما بأنه قوى الإرادة أو ضعيفها بالنظر إليه فى ضوء زاوية واحدة أو زاويتين من هذه الزوايا الثلاث وإهمال الزاوية الثالثة، فيكون الحكم سليمًا. بل لابد من النظر إلى الطفل من خلال هذه الزوايا الثلاث، وتؤخذ محصلة النتائج المتأتية عن الملاحظة التتبعية للطفل فى الاعتبار.

والواقع أن الاتجاه الحديث فى دراسة الشخصية ينجو

إلى المستقبلية التوقعية. فليس يكفى أن تحكم على الطفل فى ضوء ما هو عليه « **هنا والآن** »، بل يجب أن تنظر إليه بما سوف يئول إليه فى المستقبل. وهناك محاولات فى الوقت الحالى تبذل لدعم هذا الاتجاه المستقبلى التوقُّعى لا تقوم على أساس التخمين، بل تقوم على أسس علمية. ومن المعلوم أننا اليوم على عتبة مرحلة جديدة من العلم تتصف بالتشوف للمستقبل والوقوف عليه بقدر كبير جداً من الاحتمال. ففى ضوء مقاييس معيَّنة، يتسنى الوقوف على ما سوف يقع فى المستقبل بأرجحية بعيدة المدى. وفى مجال التربية ومقاييس الشخصية، سوف تنتشر هذه النظرة المستقبلية، بحيث يتسنى تحديد ما سوف تئول إليه شخصية الطفل فى مراحل العمر المقبلة بشكل لا يكاد يرقى إليه الشك. ولكن النظرة المستقبلية لا تَغُض النظر عن النظرة الاحتمالية. فكل احتمال يترتب عليه وقوع نتيجة أو نتائج معينة. ولكن لعل من أهم العوائق التى تحول دون تحقيق المستقبلية فى تنشئة الطفولة، هو مخاصمة التربية لعلم النفس وعدم تلاحمهما بعضهما مع بعض.

مرحلة المراهقة وقوة الإرادة :

يجب أن نضع فى اعتبارنا، أن مراحل العمر المتباينة متداخلة بعضها فى بعض، بحيث لا نستطيع أن نحدد سنًا

معينة تبدأ فيها إحدى المراحل بعد انتهاء المرحلة السابقة عليها. فنحن لا نستطيع أن نقول إن مرحلة الطفولة تنتهى فى العاشرة لكى تبدأ عندها مرحلة المراهقة، بل نستطيع أن نقول إن ثمة مرحلة بينية يكون الناشئ خلالها جامعًا فيما بين الطفولة والمراهقة قد تمتد فيما بين العاشرة والثانية عشرة، فيكون طفلاً من جهة ومراهقًا من جهة أخرى. وهذا التداخل ووجود المراحل البينية، يحتل مكانه بين كل مرحلتين من مراحل العمر المتباينة. فثمة إذن مرحلة بينية بين مرحلة المراهقة والشباب، ثم مرحلة بينية بين الشباب والكهولة، ومرحلة بينية بين الكهولة والشيخوخة.

ومن جهة أخرى فإن هناك فوارق فردية تتبدى فيما بين الأشخاص المتباينين والواقعين فى العمر الواحد. فإذا أنت تناولت مجموعة من الأطفال الذين بلغوا جميعًا سن العاشرة. فإنك سوف تجد بينهم فروقا فردية فى جوانب متباينة من الشخصية. وإذا نحن استعرضنا أمامنا جوانب الشخصية، فإننا نجد الجانب الجسمى، والجانب الوجدانى، والجانب العقلى، والجانب اللغوى الاستقبالى والإرسالى، وأخيراً الجانب الاجتماعى. وبالنسبة للأطفال الذين يقعون فى العمر الواحد حسبما توضح شهادات ميلادهم، فإنك تجدهم يتباينون فيما

بينهم بإزاء هذه الجوانب الخمسة من الشخصية. فبينما تجد واحدًا منهم متفوقًا عن سائر زملائه فيما يتعلق بالجانب الجسمى، فإنك قد تجده متخلفًا عن هؤلاء الأتراب فيما يتعلق بالجانب الوجدانى، أو الجانب العقلى، أو الجانب اللغوى، أو الجانب الاجتماعى.

وبالإضافة إلى الفروق الفردية التى تتبدى فيما بين الأشخاص الواقعين فى السن الواحدة، فإن ثمة فروقًا جنسية تتبدى بين الجنسين. وأكثر من هذا فثمة فروق توجد بين الأجناس البشرية، وأيضًا بين أهل الريف وأهل الحضر، إلى آخر التباينات التى كشفت الدراسات النفسية والأنثروبولوجية النقاب عنها.

وفى ضوء الجوانب الخمسة من الشخصية، نستطيع أن نقول إن هناك لكل منها إرادة خاصة بها. فثمة إذن إرادة بيولوجية تتعلق بالنشاط الجسمى، وثمة من جهة ثانية إرادة وجدانية، وثمة من جهة ثالثة إرادة عقلانية، وثمة من جهة رابعة إرادة كلامية تعبيرية، وثمة أخيرًا إرادة اجتماعية تتعلق بالنشاط الاجتماعى الذى يضطلع به المرء. ولعلنا نقوم فيما يلى بمدارسة قوة الإرادة لدى المراهق والمراهقة بإزاء كل نوع من أنواعها المتعلقة بكل جانب من جوانب الشخصية على النحو التالى :

أولاً - الإرادة البيولوجية عند المراهق والمراهقة :

لا يخفى على أحد ما يحدث فى القوام الجسمى للمراهق والمراهقة من تغيرات لا تتعلق بالقوة الجسمية العامة فحسب، بل تتعلق بنشأة وظائف جديدة. فالأعضاء التناسلية الخارجية والداخلية تبدأ فى النمو السريع. فالولد يبدأ فى الاستمناء فى الاحتلام، أو بالعبث فى أيْره، أو بالعبث الجنسى مع أترابه من الجنسين. أما البنت فتواتيها الدورة الشهرية وتصير قابلة من الناحية الفسيولوجية للإنجاب، وليس من شك فى أن قوة الإرادة البيولوجية تتزايد فى شدتها فى هذه المرحلة العمرية. ولا يقتصر اعتمال قوة الإرادة البيولوجية على القوام الجنسى التناسلى عند المراهق والمراهقة، بل يتمثل فى الطاقة الحيوية العامة بالنسبة للأسوياء من المراهقين من الجنسين، فتعمل تلك الطاقة الدافقة على احتدام الرغبة لدى المراهق والمراهقة للمشاركة فى المهام التى تحتاج إلى بذل الجهد العضلى وبذل الطاقة الحيوية والمساهمة فى الأعمال التى تحتاج إلى بذل جهد جسمى كبير، وإلى الدأب على الحركة وتشتغيل العضلات. أضف إلى هذا ما يبديه المراهقون من الجنسين من رغبة محتدمة فى المشاركة فى الألعاب الرياضية المختلفة التى تحتاج إلى بذل جهد مستمر وشاق فى الوقت نفسه. والجسم فى هذه المرحلة العمرية يكون قابلاً للتدرُّب على

الحركات الدقيقة، وللتآزر العضلى. والواقع أنه إذا لم تستثمر الخصائص الجسمية التى تتمتع بها هذه المرحلة العمرية، فإن المرء لا يستطيع أن يعوِّض نفسه عما فاته من تدريبات كان ينبغى أن يخضع لها خلالها، حتى يكتسب جسمه التآزرات الحركية اللازمة للممارسات الرياضية المختلفة.

ثانياً - الإرادة الوجدانية عند المراهق والمراهقة :

والواقع أن الإرادة الوجدانية تحتدم فى مرحلة المراهقة بحيث يجد المراهق والمراهقة، أن ثمة جيشانًا يغمرهما إلى حد بعيد، وأنهما مدفوعان دفعًا إلى تفريغ تلك الطاقة الوجدانية بشكل أو آخر. لقد يجد الواحد منهما مبتغاه فى الشعر أو القصة أو فى أحد الفنون، وقد يتجه الوجدان إلى شخص بالذات، فيشاهد فيه المثل الأعلى المنشود الذى لا يدانيه أى شخص آخر كائنًا من كان. وقد يتعلق المراهق أو تتعلق المراهقة بشخص من الجنسن المقابل تعلُّقًا غراميًا رومانسيًا، فيجد فيه ملاكًا بمعنى الكلمة، لاتعتور حياته نقيصة، ولا تصدر عنه هَنَة أو أى اعوجاج فى السلوك. وقد ينصرف المراهق والمراهقة عن دنيا الناس ويصرفان الوقت والجهد الوجدانى فى العبادة والتأمل الروحى، فيتقربان إلى السماء، ويتعلَّق قلباهما بالشخصيات الدينية كالأنبياء والقديسين، ويعكفان على مدارسة سيرهم بحيث تصطبغ حياتهما بالصبغة التى

يستشفانها من تلك السِّيَر والمواقف والتصرفات والأقوال المأثورة عنهم.

ثالثًا - الإرادة العقلانية عند المراهق والمراهقة :
يتواكب التدفق الوجدانى لدى المراهق والمراهقة مع الارتقاء العقلانى. ففى مرحلة المراهقة يأخذ المراهقون فى إحراز المعارف المتباينة التى تتسم بالموضوعية والعقلانية. وينعكس هذا على ما يبدونه من نقد الآخرين ونقد أنفسهم، والقيام بغربلة المفاهيم التى طالما أخذوا بها خلال الطفولة. فلا يكون ارتقاؤهم إلى مرحلة المراهقة ارتقاءً جسميًا أو وجدانيًا فحسب، بل يكون أيضًا ارتقاء ذهنيًا عقلانيًا، وفى هذه المرحلة لا يكون التحصيل لحشو الذاكرة بالمعلومات، بل للتفاعل المعرفى، ونقد ما تقع عليه الأبصار، أو ما يصل إلى الأذنين من كلام. وكثيرًا ما يَخْلص المراهق والمراهقة إلى أفكار جديدة نتيجة التأمل وعقد المقارنات وإحداث التفاعلات فيما سبق تحصيله من معارف مختلفة.

رابعًا - الإرادة اللغوية عند المراهق والمراهقة : الواقع أن المراهق والمراهقة يَكْلفان بما ينطقان به من كلام، وبما يقومان بكتابته إذا كانا قد تعلما الكتابة. وأكثر من هذا فإنهما يَكْلفان بتقسيم ما تقع عليه العينان، أو ما يصل إلى الأذنين من كلام.

صحيح أنهما يهتمان بموسيقى الكلام كما كان شأنهما فى الطفولة، ولكن هذا الكَلَف يأخذ فى الارتقاء فى المراهقة، فلا تكون موسيقى الكلام هى التى تحتل ذلك المقام الأسمى فى اللغة، بل يحتل الصواب فى الكلام ذلك المقام الأسمى. فالمراهق والمراهقة يهتمان بتمحيص الكلام، والوقوف على ما يعتور لغة الحديث أو لغة الكتابة من أخطاء. وكذا فإنهما يهتمان بالمصطلحات العلمية أو الفلسفية أو الأدبية، فيعمدان إلى المراجع التى تظهرهما على المعانى الدقيقة لكل مصطلح يستخدمانه أو يستخدمه غيرهما فى كلامه المنطوق أو كلامه المكتوب. ولعلنا نسمى هذه المرحلة العمرية بمرحلة التصحيح اللغوى. ذلك أن المراهقة يأخذان فى غربلة المستخدم من الألفاظ والعبارات والجمل، وذلك بالاستعانة بالمنطق والبلاغة، وغير ذلك من أدوات أو أسلحة تساعدهما على عملية الغربلة أو التنقية الكلامية. ولا شك أن الحصيلة اللغوية فى هذه المرحلة تزداد زيادة كبيرة، إذ يكون المراهق والمراهقة على استعداد لزيادة حصيلتهما اللغوية، بل وتعلم لغات أجنبية جديدة مع العكوف على القواميس والمعاجم ينهلان منها ويستوعبان ما يجد هوى لديهما من الفاظ ومصطلحات.

خامساً - إرادة العلاقات الاجتماعية عند المراهق والمراهقة : تعتبر مرحلة المراهقة بحق مرحلة الانفتاح على

الواقع الاجتماعى. وحتى المراهقون من الجنسين الذين يَتَّسمون باعة الانطوائية، يكونون كَلِفين بالواقع الاجتماعى إلى أبعد حد، ولكنهم يتناولون الواقع الاجتماعى من منظورهم الشخصى. أما بالنسبة للانبساطيين من المراهقين من الجنسين، فإنهم يعمِدون إلى توسيع مجال نشاطهم الاجتماعى، فيرحِّبون بالعلاقات الاجتماعية الجديدة، بل ويعمِدون إلى تكوين شلل لهم، سواء كان الواحد منهم فى شلته زميلاً أو تابعًا أو زعيمًا. فما يهم الواحد منهم هو أن يعبِّر عن إرادته الاجتماعية إلى المدى الذى يشبع نهمه من العلاقات الاجتماعية. ولقد يعمِد الواحد من المراهقين أو الواحدة من المراهقات إلى الترقى بالعلاقات الاجتماعية. وذلك بالانكباب على كتب التاريخ، وعلى كتب السِّيَر حتى تأتى العلاقات الاجتماعية التى يقيمانها فى مستوى المثل العليا التى يستشفونها من الشخصيات التاريخية التى قرءوا عنها، وتقمصوا حياتها ومواقفها. ولا يقف خيال المراهق أوالمراهقة عند حدود الحاضر، بل يمتدان ببصرهما إلى المستقبل، فيترسَّمان ما سوف يصيران إليه من أوضاع اجتماعية مرموقة، فيبدآن فى بذل الجهد لتحقيق ذلك المثل الأعلى أو الهدف الذى وضعاه نصب أعينهما. وكثيرًا ما يثور المراهق وتثور المراهقة على مادأب الناس حولهما على الضرب

فى إثره من ألوان سلوكيه لا يرضيان عنها، فما يترسمانه يتباين عما ألفه الكبار من حولهما؛ ولذا فإنك تجد الابن المراهق أو الابنة المراهقة كثيرًا ما يوجهان أسلحة النقد إلى الوالدين والمدرسين والكبار بعامة، ويسخران مما ضربوا فى إثره من ألوان سلوكية.

مرحلة الشباب وقوة الإرادة :

بالنسبة للمرحلة البينيَّة التى افترضنا وجودها بين كل مرحلة عمرية والمرحلة التالية لها، فإننا نعتقد أن المرحلة البينيَّة الواقعة بين مرحلة المراهقة ومرحلة الشباب، تقع فيما بين الثامنة عشرة والعشرين. فخلال هاتين السنتين يكون الناشئ مراهقًا من جهة وشابًا من جهة أخرى. وتكون هذه المرحلة البينية بمثابة استعداد جسمى نفسى لدعم إرادة المرء بحيث يصير كفئًا لتحمل مسئوليات هذه المرحلة العمرية الجديدة بكل أنحائها ومقوماتها وخصائصها. والواقع أن قوة الإرادة - أو قل الشحنة الإرادية - التى تقيَّض للشباب من الجنسين، سواء الذكور أم الإناث، تتباين من حيث كميتها وشدتها من شاب إلى شاب آخر، ومن شابة إلى شابة أخرى. ويرجع هذا التباين فى الكمية والشدة إلى البنية الجسمية من جهة، وإلى العوامل النفسية من جهة ثانية، وإلى مستوى

الرعاية التى تُكْفل للشاب والشابة من جهة ثالثة.

أما من حيث الوجهات التى تتخذها قوة الإرادة عند الشباب من الجنسين، فإنها تتباين بتباين المجتمعات من جهة، وبتباين المستوى الحضارى الذى بلغه كل مجتمع من جهة ثانية، وبتباين الأعراف والتقاليد الاجتماعية من جهة ثالثة، وبتباين المستوى الحضارى الذى ينخرط فيه كل مجتمع من المجتمعات المتباينة من جهة رابعة. بيد أننا نستطيع أن نقرر بشكل عام أن الحضارة البشرية تعمل على الانتقال ببؤرة الاهتمام البشرى من المحسوس إلى المجرد، ولكن هذا لا يعنى أن الحضارة تُهْمل المحسوسات أو تعمل على إلغائها، بل يعنى أن الحضارة تعمد إلى سيطرة الفكر البشرى بما يفرزه من أفكار وقيم واتجاهات على الأشياء المحسوسة.

وكثيرًا ما يعمِد المجتمع الحضارى إلى الاستمرار فى إخضاع الشباب من الجنسين جميعًا للاستعداد للانخراط فى ركب الحياة العملية، وذلك بالاستمرار فى التعليم دون الاشتغال بشىء سوى الدراسة التى تنصب على الرموز المكتوبة والرموز المسموعة وما يترتب عليها من التدريبات التى يجب الالتزام فيها بما يصل إلى سمع المتعلم أو ما يقع تحت بصره من كلام وتوجيهات. فالكثير من الشباب لا

يبدءون حياتهم العملية إلا فى منتصف مرحلة الشباب تقريبًا. وحتى بعد الانخراط فى حياتهم العملية فإن الحضارة الحديثة تلزم معظم الشباب بالاستمرار فى التحصيل المعرفى أواكتساب مهارات جديدة حتى يتسنى لهم مواصلة التكيف للمتطلبات الحضارية المتدفقة فى المجالات التى يعمل فيها أبناء الحضارة الحديثة.

والواقع أن ثمة مشكلات نفسية واجتماعية كثيرة قد نشأت عن استمرار الشباب فى التعليم، وبالتالى استمرارهم فى مرحلة العِيَالة على الأسرة إلى أن ينخرطوا فى الحياة العملية. وحتى بعد الانخراط فى الحياة العملية، فإن اشتغالهم لا يكفل لهم إعالة أنفسهم والاستقلال عن أسرهم وإنشاء أسر جديدة مستقلة ومسئولة عن رعاية نفسها والقيام على شئونها وتسيير أمورها بغير مساندة أو مساعدة.

فالحضارة عندما حتَّمت على الشباب بأن يظلوا تحت الوصاية من جانب الوالدين ماداموا فى كَنَفها يحتمون، قد عملت على صب الشباب فى قوالب غير مناسبة لما يعتمل بدخائلهم من طاقات وغرائز، فالمطلوب من الشاب وأيضا من الشابة أن يكبتا ويقمعا ما يعتمل فى قوامهما الداخلى من غريزة جنسية محتدمة، وأن يكبتا ويقمعا أيضًا ما يعتمل فى

قوامهما من غريزة القوة التى يطلق عليها خطأ اسم الغريزة العدوانية. فكلما تنكَّر الشاب وتنكَّرت الشابة لما جبلا عليه، ولما يعتمل فى قوامها من غرائز ودوافع فطرية، أُغْدق عليها المديح والإطراء. والواقع أن الإنسان قديمًا كان منسجمًا فى حياته، فلم يكن هناك صراع بين مطالب المجتمع وبين المطالب التى تفرضها عليه سِنُّه، وما يشيع فى أنحائه من رغبات، سواء كانت رغبات جنسية أو غير جنسية. فلقد كانت مرحلة الشباب بل ومرحلة المراهقة ذاتها أو حتى الطفولة - بغير مبالغة - هى مراحل انخراطية فى الحياة. لقد كان العمل والحياة العملية يبدآن منذ الطفولة، وكان التعليم فى القبائل البدائية يتوازى مع ممارسة الحياة، ولم تكن الحياة تُقَسَّم إلى مرحلة أو مراحل تعليمية ثم مرحلة أخيرة هى المرحلة الإنتاجية، بل كان التعليم والتدريب شيئًا واحدًا.

وكلما تقدمت الحضارة وازدادت تعقيدًا، فإن الإعداد للحياة دون المشاركة فيها صار بحاجة إلى فترة زمنية أطول تُقْتطع من حياة المرء. فبعد أن استولى الإعداد للحياة على مرحلة الطفولة، اتضح أن هذه المرحلة لا تكفى للإعداد للحياة، ومن ثَمَّ امتد الإعداد للحياة إلى مرحلة المراهقة واستولى عليها. ولكن الحضارة تثقل على الإنسان الحضارى أكثر فأكثر، فصار من الضرورى أن يلتهم الإعداد للحياة مرحلة الشباب أيضًا.

ومن الطبيعى أن الشاب والشابة يجدان أنهما لا يتمكنان من استثمار ما يعتمل فى قوامهما من قوة الإرادة. فما تقدمه الحضارة لهما من تدريب وتعليم، إنما هو فى الواقع عبارة عن قوالب جاهزة، فلا يكون أمامهما من سبيل سوى الامتصاص والاستيعاب والتخزين فى الذاكرة بالنسبة للمعارف المتباينة. أما بالنسبة للمهارات الحركية والمهارات الاجتماعية، فإنهما بدورهما محدَّدَتا القَسَمات، ومحدَّدتا الخطوات أو المراحل، ولا يكون أمام الطالب سوى صب نفسه فى تلك القوالب الحركية أو القوالب الاجتماعية دون أن يقوم هو بنفسه بعملية التشكيل والإبداع.

وعلى هذا فإن قلة نادرة من الشباب من الجنسين على المستوى العالمى هم الذين يتسنى لهم أن يبدعوا، وأن يتركوا بصماتهم على الحياة. أما الغالبية العظمى من الشباب فإن عليهم أن يكونوا هامشيين بمعنى الكلمة، وأن يجعلوا من أنفسهم مجرد أدوات لتنفيذ ما تأمرهم به الحضارة. وحتى بالنسبة للصفوة التى يتسنى لأفرادها أن يبدعوا، فإن عليهم أن يبدءوا مشوارهم بأن يصبُّوا أنفسهم فى القوالب الخِبْرية التى أعدتها الحضارة للجميع، ثم هم بعد ذلك يبدءون فى الطَّفْو على السطح والتبريز والنبوغ وإبداء ما يتسنى لهم الإبداع فيه من فكر أو أداء.

ولكن مـاذا يفـعل مـعظم الشـبـاب من الجنسين بإزاء مايعتمل لديهم من إرادة مُستعرة فى قوامهم ؟ وهل من سبيل إلى إطلاق هذه الطاقة الحيوية من دخائلهم فى مناخ غير المناحى التى جُعلت لها بالفطرة والطبيعة ؟ إن ما يسمى بالإبدال أو الإعـلاء sublimtion، حتى وإن استطاع أن يستثمر جانبًا كبيرًا من الطاقة الحيوية ومن قوة إرادة الشاب أو الشابة، فإنه لا يستطيع فى الواقع أن يستنفدها كلها. وإنك لتجد فى مدارستك لحياة العباقرة، أنهم برغم استنفادهم لجانب كبير جدًا من قوة إرادتهم فيما نبغوا فيه وأبدعوا، فإنهم لم يتمكنوا من قتل المعتمل فى قوامهم من غريزة جنسية أو من غريزة القوة، بل إن طاقتهم الحيوية كانت تعتمل بدخائلهم من جهة، وتطل برأسها فى سلوكهم الخارجى وفى علاقاتهم بالناس من حولهم من جهة أخرى.

وإذا نحن أغضينا عن الجوانب السلبية فى حياة النوابغ والعباقرة من الشباب وركَّزنا أذهاننا فى الجوانب الإيجابية التى وجهوا إرادتهم فيها، فإننا نجد أنهم قد استهدوا بمجموعة من المبادئ والأهداف التى نستطيع أن نحدد أهمها فيما يلى :

أولاً - التربية الذاتية : فمهما قيل عن التربية والتعليم بالمدارس والجامعات، وعن رعاية الأسرة للمرء طفلاً ومراهقًا

وشـابًا، فـإن الحـقـيـقـة التى لا مـحـيص عنهـا، ولا سـبـيل إلى إسـقـاطهـا من الحـسـاب، هى أن صـاحب الإرادة القـوية يبـدأ بتربية ذاته منذ طفولته ومرورًا بمراهقته وانتهاءً إلى شبابه. فالمرء وحده هو المسؤول عن معرفة إمكاناته وتحسس ميوله، ثم هو الوحيد الذى يتعهد تلك الإمكانات والميول بالاستثمار، وهو وحده الذى يستطيع أن يدرِّب نفسه على التعبير عن ذاتيته، سواء بالكلمة المنطوقة أم بالكلمة المكتوبة أم بالأداء العلمى أم بالأداء الفنى. ولعل صاحب الإرادة القوية هو ذاك الذى يستطيع أن يقيم قنطرة أو يحدث تفاعلاً فيما بين ما يتلقاه من تعليم وتربية من الآخرين، وبين ما يقوم هو به من تربية ذاتية. بيد أنه يجعل التربية الذاتية ذات الكلمة الأولى وصاحبة السيادة على التربية المستمدة من الخارج أو التى يفرضها الكبار من حوله عليه.

ثانيًا - البحث الدائب عن الجديد وغير المكتشف وغير المطروق : الواقع أن النوابغ والعباقرة أصحاب الإرادة القوية يدأبون على تفحص الواقع، لا لكى يضربوا فى إثره، بل ليكتشفوا الجوانب المجهولة التى لم تندرج بعدُ فى إطار ذلك الواقع. صحيح أن بعض أقوياء الإرادة لا يخرجون عن حدود الواقع وما سبق تحديده، ولكن هؤلاء لا يمكن دَرْجهم فى

نطاق النوابغ أو العباقرة. فإذا أنت أردت أن تنظر إلى قوة الإرادة فى تمِّها واكتمال معناها، فإن عليك أن تركز نظرك فى حياة الأفذاذ والنوابغ والعباقرة وليس فى حياة من يدأبون على ممارسة الأعمال الرتيبة التى تحددت قَسَماتها وتعينت خطوات تنفيذها.

ثالثا - النقد الذاتى والنقد الموضوعى بغَرض إتقان العمل : إن من السمات الرئيسية فى حياة الشاب قوى الإرادة أو الشابة قوية الإرادة، الاستمرار فى نقد الذات ونقد ما أنجزه الآخرون بقصد الإتيان بالأعمال التى تتسم بالإتقان وعدم الحَيْد عن الصواب أو عما يجب أن يكون. فالعباقرة والنبهاء من الأدباء والكتاب والفنانين والمخترعين والعلماء قد ضربوا جميعًا فى هذا الخط. فهم يدأبون على مراجعة نتاجاتهم بالحذف والإضافة والتعديل والتصويب دون أن يصيبهم الكلل، أو دون أن يَتَسرب الملل إلى قلوبهم. فالشخص العَجُول يكون فى الواقع مفتقرًا إلى قوة الإرادة. ناهيك عن قصر النفس. فالكثير من الشباب من الجنسين يتبرّمون بما بدءوا فيه من أنشطة كانت تبشر بنجاح عظيم، لو أنهم استمروا فيها حتى تؤتى الثمار المرجوة منها.

مرحلة الكهولة وقوة الإرادة :

نستطيع أن نقول بناء على الفرض الذى سبق أن قدمناه من أن ثمة مرحلة بَيْنية تقع بين كل مرحلتين عمريتين، إن هناك مرحلة بَيْنية بين مرحلة الشباب ومرحلة الكهولة تمتدفيما بين الثامنة والعشرين والثلاثين. فالمرء خلال هذه المرحلةالبينية يكون شابًا من جهة وكهلاً من جهة أخرى، والواقع أن مرحلة الكهولة تمتد حتى الخمسين، ولعلنا نزعم أن الفترة الزمنية الواقعة فيما بيم الخمسين والستين تعد مرحلة بينية وبين الكهولة والشيخوخة، فيعتبر المرء خلالها كهلا من جهة وشيخًا من جهة أخرى. على أن كفة الكهولة يمكن أن تكون راجحة لدى بعض الأشخاص خلال هذه المرحلة البينية، بينما تكون كفة الشيخوخة هى الراجحة عند أشخاص آخرين. فذلك يتوقف على مدى الحيوية والإيجابية التى يبديها الأشخاص الواقعون فى هذه المرحلة البينية.

والواقع أن مرحلة الكهولة هى المرحلة الإنتاجية الإيجابية بمعنى الكلمة فى حياة المرء. فإذا كانت الحضارة قد أجبرت معظم الناس على الانخراط فى مرحلة الإعداد للحياة التى شملت الطفولة والمراهقة وجانبًا كبيرًا من مرحلة الشباب أو مرحلة الشباب بأكملها، فإنها ما تزال تعتبر مرحلة الكهولة

هى المرحلة التى يجب على المرء خلالها أن يعمل ويعتمد على نفسه فى تحصيل رزقه، وفى إنشاء أسرة خاصة به، فيستقل بهذا عن الأسرة التى نشأ فيها.

بيد أن الواقع الحضارى ما يزال مستمرًا فى تطوره وفَق منطق غريب عن منطق الطبيعة. ذلك أن الحضارة بعد أن جعلت من مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب فترات إعداد للحياة، فإنها لم تقنع بما فعلته، بل إنها أخذت تنحِّى الكهولة أيضًا من مجال النشاط العملى نتيجة الزيادة الرهيبة فى عدد السكان من جهة، ونتيجة دخول التكنولوجيا بثقلها إلى مجالات العمل، بحيث صارت المَيكنة تقذف أمامها بالأعداد الهائلة من العاملين فتستغنى عنهم ميادين العمل المتباينة من جهة ثانية، فأفضى هذا إلى إحالة فترة الكهولة بالنسبة للعديد من الناس إلى مرحلة عِيَالة على المجتمع، فيظل المرء بغير عمل حتى نهاية العمر. ذلك أن مَنْ لم يقيَّض له أن يعمل وينتج خلال مرحلة الكهولة، لا يتسنى له بالتالى أن يعمل خلال مرحلة الشيخوخة.

وهكذا نجد أن مرحلة الكهولة التى تمتاز بقوة إرادة هائلة، تظل بالنسبة لكثير من الناس بلا فائدة أو فاعلية فى الحياة. فالواقع أن الحضارة آخذة فى تشويه طبيعة الإنسان

وما جبل عليه من قوة إرادة يراد لها بالطبيعة أن توجَّه إلى مجالات العمل المتباينة. والخوف كل الخوف من المستقبل القريب والمستقبل البعيد الذى يتوقع أن تستغنى فيهما الحضارة عن جميع الجهود البشرية أو عن الغالبية العظمى من تلك الجهود، ولا يكون بذلك أمام الإنسان من مَنْفذ لاستثمار قوة إرادته سوى مجالات الترفيه والمجالات الدينية والسياسية. ونخشى أن نقول إن الكثير من الناس سوف يوجهون قوة إرادتهم وجهات إجرامية، وبخاصة ما كان متعلقا بالجرائم الجنسية والسرقة والعدوان والإيذاء الجسدى.

ولكن هل معنى هذا أن جميع الناس سوف ينزاحون عن قيادة الحياة، أو بتعبير آخر : هل سوف يسفر المستقبل القريب أو المستقبل البعيد عن حضارة متمرِّدة على الإنسان بحيث تصير بعد حين هى صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة فى تسيير حياته وتحديد مساراتها ؟ إننا نتوقع هذا بالنسبة للغالبية العظمى من البشر، ولكننا نستثنى منهم قلة أو صفوة سوف تظل ممسكة بالخيوط التى توجِّه دفة الحضارة وتحدد اتجاهاتها المقبلة. صحيح إن الحاسبات الإلكترونية والروبوتس سوف تشرف على الكثير جداً من الأنشطة الإنسانية، ولكن الصفوة من العلماء والتكنولوجيين هم الذين سوف يقومون بتطوير تلك الحاسبات الإلكترونية والروبوتس،

وهم الذين سوف يبتكرون مخترعات متلاحقة لا نستطيع التنبؤ بها حاليًا. ولسوف يظل المبدعون فى المجالات المتباينة هم سادة البشرية. ذلك أن السيادة الحقيقية ليست فى أيدى مستخدمى التكنولوجيا أو التطبيقيين العلميين أو الحفظة الذين يجمعون فى ذاكرتهم الكثير من المحفوظات المعنوية، وإنما السيادة الحقيقية كانت وما تزال وسوف تظل فى أيدى المبدعين. فالذين اخترعوا الصاروخ والدبابة والراديو والتلفيزيون والفيديو هم السادة وليس مستخدمى الصاروخ والدبابة والراديو والتلفيزيون والفيديو، فالمستخدمون لتلك الأشياء وغيرها من ثمار تكنولوجية هم الأتباع. أما السادة فإن بمقدورهم ابتكار أشياء جديدة.

ولعلنا نستطيع أن نميِّز نوعين من قوة الإرادة فى حياة الكهول : الأولى - قوة إرادة إبداعية، والثانية - قوة إرادة تنفيذية. وواضح بجلاء أن قوة الإرادة الأولى - أعنى قوة الإرادة الإبداعية - هى النوع الأسمى والأندر إذا ما قورنت بالنوع الثانى من قوة الإرادة، أعنى قوة الإرادة التنفيذية. وسواء ظل التنفيذ فى أيدى الآدميين أم نيط بالآلات والأجهزة أو حتى بأجهزة الكومبيوتر والروبوتس، فإن التعويل الحقيقى سوف يظل منوطًا بالعقل الإنسانى المبدع بما يتأتى له من إرادة إبداعية. وحتى إذا قيل إن الكومبيوتر سوف يشترك

على نطاق واسع فى المجال الإبداعى، فإننا نرد على هذا بأن الإبداعيين سوف يتناولون الإبداعات التى يفرزها الكومبيوتر باعتبارها خامات يقوم العقل البشرى بتصنيعها فيحيلها إلى إبداعات ذات مستوى رفيع لا يتسنى للكومبيوتر أو لغيره من أجهزة إلكترونية صنعها الإنسان. ولعلنا نشبه إبداعات الكومبيوتر بما يمكن أن تساعد به الآلة الحاسبة عالم الرياضيات فى أبحاثه الرياضية الإبداعية. فاستخدام عالم الرياضيات للآلة الحاسبة يجعل منه سيداً مالكًا لقوة أكبر فى سبيل إبداعاته الرياضية.

والواقع أن الإبداعات التى يتسنى للكومبيوتر وغيره من إلكترونيات أن يقدمها إن هى فى الواقع سوى عمليات توافيق وتباديل، أو تفاعلات دقيقة فيما بين المعلومات التى خزنت فيه. ومعنى هذا أن ما يقوم الكومبيوتر بإبداعه، إنما يرتكز على ما يقوم المختصون بتقديمه إليه وتسجيله به. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : هل يتسنى للكومبيوتر أو حتى للآلة الحاسبة أن تفيد فى شىء إذا لم يكونا قد خزنت بهما المعلومات بحيث لا يكون ثمة من وظيفة لهما سوى تنظيم تلك المخزونات بطرائق جديدة ؟ الواقع أن هذا غير ممكن.

وبترتب على هذا نتيجة هامة هى أن مقود الإبداع سوف يظل فى قبضة الإنسان بإزاء ما لم يتسن تخزينه من

معلومات أو خبرات بشرية. وفيما يلى نستطيع أن نستعرض أنواع الخبرات البشرية التى سوف يظل الإنسان مسئولاً عن إعمال قوة إرادته فيها، وهى الخبرات التى لا يستطيع الكومبيوتر أو غيره من إلكترونيات، الإبداع فيها أو إزاحة الإنسان بعيدًا عن مجالها. والخبرات هى :

أولاً - جميع المعارف التى لم يتم تسجيلها حتى الآن على الدسكات الخاصة بتخزين المعلومات بالكمبيوتر. ومما لا شك فيه أن الكمية الهائلة جدًا من المعارف البشرية عَبّر تاريخ الحضارة المترامى خلال الزمان، وهى التى تتسم بالتدفق المتضاعف، لا يتسنى تسجيلها برمتها. فما تم تسجيله بالأمخاخ الإلكترونية - إذا صح التعبير - لا يمكن مقارنته بما لم يتم تسجيله. ناهيك عن أن الإنتاج المعرفى يتدفق على قدم وساق بحيث لا يتسنى تسجيله وتخزينه بسبب ضخامته الهائلة. أضف إلى هذا أن اللغات عَبّر شعوب العالم عديدة للغاية ، وعلى حد علمنا فإن الكومبيوتر ليس فى مقدوره أن يستوعب لغات الإنسانية المتباينة والكثيرة جدًا. وعلى هذا فإن المجال سيظل مفتوحًا أمام المبدعين فى شتى لغات العالم، وذلك بإحداث تفاعلات خِبْرية بين الأمخاخ البشرية وبين التراث والمعارف الإنسانية بعامة.

ثانياً - إن المعارف البشرية ليست منحصرة فى نطاق الأوراق المكتوبة أو المطبوعة. فالواقع أن الكثير من المعارف لاتنتقل عن طريق الكلام المكتوب، بل تنتقل عن طريق العلاقات الشخصية والعلاقات الاجتماعية فى مواقف متباينة. ولعل أهم تلك الخبرات تلك التى تتقل ما كان متعلقاً بالمهارات الحركية كاستخدام الكومبيوتر نفسه وكقيادة السيارة أو الطائرة والعوم ولعب كرة القدم ونحو ذلك الكثير. فمثل هذه الخبرات لا يتسنى تخزينها فى الكومبيوتر، بل إن الإبداع وإرادة الإنسان تتبدى فيها على خير وجه وأتمه.

ثالثاً - إن جميع ما يتعلق بالقيم الدينية والأخلاقية والجمالية لا دخل للكمبيوتر فيها. ولسوف يظل الإنسان هو السيد فى مجال القِيَم. فإذا كان الكومبيوتر مفيداً فيما يتعلق بالمجال المعرفى، فإنه لا يفيد ولا يضر بإزاء مجال القيم على تباين أنواعها. ولسوف يظل أقوياء الإرادة يُدْلون بدلائهم فى هذه المجالات القيمية بحيث تترعرع على أيديهم، ولا يكون للكومبيوتر أى فضل فى هذا الشأن.

رابعاً - بالنسبة للقرارات الحاسمة المتعلقة بالسياسة والحرب والشؤون الاقتصادية، فإننا نجد أن الإنسان ما يزال - وسوف يظل هو المسؤول عنها والمبدع فيها. فها نحن

نرى أن القرارات المصيرية تصدر عن الزعماء، ولا تصدر عن الكومبيوتر. فمهما استعان المسؤولون ببنوك المعلومات والإنترنت فإن استعانتهم بها كاستخدام الرسام للألوان، وكاستخدام الكاتب للقلم.

خامسًا - وبمناسبة الفنان فى قيامه برسم لوحاته أو الكاتب فيما يقوم بكتابته من إبداعات غير مسبوقة، فإننا لا نستطيع أن نتخيل المستقبل وقد استغنى عن الإبداعات الفنية أو الفكرية مكتفيًا بما يقدمه الكومبيوتر. فإرادة الإبداع الفنى والأدبى والفلسفى والعلمى سوف تظل معتملة فى القوام الإنسانى من جهة، وفيما يتم إنتاجه من فنون وآداب وفلسفات وعلوم من جهة أخرى يقدمها الكهول فى الحاضر والمستقبل على السواء.

مرحلة الشيخوخة وقوة الإرادة :

شاع فى الأذهان على نطاق واسع أن الشيخوخة هى مرحلة الضعف والوَهَن والتوقف عن مزاولة النشاط الذى اعتاد المرء على النهوض به، والعجز عن إنتاج ما كان المرء ينتجه من أعمال. والواقع أن الشيخوخة عبارة عن مجموعة من الأعراض التى تتواكب بعضها مع بعض، بحيث تشكل مركَّبًا من تلك الأعراض هو ما يسمى بالشيخوخة. بيد أن

الشيخوخة بهذا المعنى يمكن أن تصيب بعض الناس فى أى مرحلة عمرية. فالكهول والشباب والمراهقون بل والأطفال، يمكن أن يصابوا بمرض الشيخوخة. صحيح أن الشيخوخة باعتبارها مرضًا، إنما تصيب كبار السن أكثر بكثير مما تصيب الواقعين فى مراحل العمر الأخرى. ولكن ليس من المحتم أن يصاب الشخص الذى تجاوز الستين بمرض الشيخوخة. ومع تقدم الطب الوقائى، وبخاصة فيما يتعلق بالوقاية من المرض، فإن المستقبل سوف يكفل لكبار السن عدم التعرض للإصابة به، ولا يكون الموت متواكبًا مع التدهور الصحى، بل يحدث فجأة بينما يكون المسن موفور الصحة والنشاط. ونحن نعلم أن الموت لا يرتبط حتمًا بالمرض.

ومما لاشك فيه أن قوة الإرادة خلال المرحلة العمرية التى نعتت خطأ باسم مرحلة الشيخوخة، تعتمد بصفة رئيسية على ما سبق أن تمتع به المرء من قوة إرادة خلال مراحل العمر السابقة. فكما أن مراحل العمر المتباينة متداخلة بعضها فى بعض، كذا فإنها متراكبة بعضها فوق بعض، بل ومتفاعلة بعضها ببعض. فقوة الإرادة كما سبق أن قلنا، تبدأ لا شعوريًا - بالمعنى العام للكلمة - منذ لحظة التكوين جنينًا فى بطن الأم. والإرادة فى تلك المرحلة الجنينية تكون من طبيعة بيولوجية بحتة. وفى الطفولة تتشعب من هذه الإرادة

البيولوجية أنواع جديدة من الإرادة كما ذكرنا. وكلما تقدم المرء فى النمو وفى التفاعل مع المقومات البيئية والاجتماعية، تفتقت لديه أنواع جديدة من الإرادة.

وهكذا نجد أن المرء الذى بلغ الستين فما بعدها، يكون حاملاً فى قوامه تلك الحصيلة الإرادية التى تكونت فى شخصيته. صحيح أن الإرادة البيولوجية لديه تكون قد قلَّت فى نضارتها نسبيًا إذا ما قيست بما كانت عليه خلال الكهولة والشباب، وأيضًا خلال المراهقة والطفولة، ولكن الحكم بإزاء الإرادة البيولوجية يجب ألا ينسحب على الأنواع الأخرى من الإرادات التى وإن كانت قد انبثقت من حيث أصلها من هذه الإرادة البيولوجية، فإنها تشكِّل أنواعًا جديدة من الإرادات، شأنها فى ذلك شأن النار التى تنبثق من الخشب المحترق، ولكنها تختلف من حيث جوهرها عن جوهر الخشب.

بيد أننا مع هذا نعترف بأن الإرادات المتباينة المنبثقة من الإرادة البيولوجية، لا تكون على المستوى نفسه من القوة والحيوية. ولكن من جهة أخرى فإن علينا أن نميز بين قوة وحيوية الإرادة وبين النضج الخِبْرى. فبعد انخراط المرء فى **مرحلة العمر الثانى** التى تسمى خطأ باسم مرحلة الشيخوخة، فإنه يكون قد نضج خِبْريًا بحيث أن حصيلته

الخبرية الضخمة يمكن أن تعوضه عن النقص فى قوة وحيوية إرادته المتباينة المنبثقة من إرادته البيولوجية. وإنك لتجد الكثير من الشيوخ يقدّمون أحسن إنتاجهم بعد أن بلغوا الستين أو حتى بعد السبعين (انظر كتاب «رعاية الشيخوخة» للمؤلف - مكتبة غريب بالفجالة).

وهناك فى الواقع عملية سيكولوجية ثانية يضطلع بها البعض ممن انخرطوا فى هذه المرحلة، يجددون بها قوة إرادتهم، هى عملية الإيحاء الذاتى. وبمقتضى هذه العملية فإن المرء يجلس إلى نفسه فى وَحْدة منعزلاً عن الناس لبعض الوقت، ويأخذ فى شحن ذهنه بالأفكار المتفائلة والمستقبلية، كما يعمِد إلى تجديد أهدافه التى هى مهام أو عمليات أو مشروعات سوف يضطلع بتحقيقها. والواقع أن هذه العملية الذاتية أشبه ما تكون بإعادة شحن بطارية السيارة، فيتجدد نشاطها بعد أن تكون على وشك التوقُّف عن العمل. ونستطيع أن نقول إن الارتباط نفسيًا بالمستقبل، يُكْتسب المرء حيوية متدفقة ولعنا لا نبالغ إذا ما زعمنا أن الكثير مما يسمى بأمراض الشيخوخة - وهى الأمراض التى تشيع لدى كثير من الشيوخ - إنما ترتبط إلى حد بعيد بالتوقف عن ترسُّم أهداف مستقبلية والانحصار فى إطار الحاضر والماضى فحسب.

ومما لا شك فيه أن ترسُّم المستقبل وتجديد الأهداف التى على المرء أن يضطلع بها، ينطوى فى الوقت نفسه على تجهيز طاقة نفسية لإنجاز الأهداف المرجو إنجازها. وبتعبير آخر فإن ما نسميه بالطاقة النفسية هنا، إنما هى فى الواقع قوة الإرادة أو الشحنة الإرادية اللازمة للنهوض بالمهام المستقبلية. وليس هناك من ينكر العلاقة الحميمة القائمة فيما بين حالة المرء النفسية وبين حالته البيولوجية. فالنظرة الحديثة إلى الإنسان، لا تقيم حاجزًا بين الصحة النفسية والصحة الجسمية، بل تؤمن إيمانًا راسخًا بالعلاقة التبادلية بين مستوى الصحة النفسية ومستوى الصحة الجسمية.

ومعنى هذا أن الشيخ أو الشيخة اللذين يترسمان أهدافًا مستقبلية، ويحسان بالتفاؤل فى إمكان تنفيذها، إنما يعملان بهذا على استنهاض طاقتهما الصحية الجسمية. بيد أن هذا الاستنهاض ليس مطلقًا إلى ما لا نهاية، بل هو محدود بحدود الطاقة البشرية. فكما أن بطارية السيارة، لا يمكن أن يتم تجديد نشاطها إلى ما لا نهاية، كذا فإن تجديد الصحة الجسمية والصحة النفسية بواسطة عملية الإيحاء الذاتى وتجديد الأهداف التى يترسمها الشيخ أو الشيخة ليس مطلقًا بغير قيود، بل هو محدود بحدود ما أسميناه بالطاقة البشرية. ولكن مما لا شك فيه أن الشيوخ الذين يتبعون هذا

المنهج الإيحائى الذاتى يعيشون فى سعادة وانسجام مع أنفسهم، ويكونون راضين عن ذواتهم. وبمناسبة ذكر الرضى عن الذات، وهو ما يترتب على تقدير الذات، فإنه يشكل مصدرًا آخر من مضادر إنعاش وتقوية الإرادة. فالشيوخ الذين يحسون بالرضى عن أنفسهم، يجدون أنهم قادرون على الاستمرار فى العناية بأنفسهم، وعلى الصدور فى تلك العناية عن تقديرهم لذواتهم. وبالتالى فإنهم يكونون فى حالة حب لأنفسهم، ولكنه حب من نوع مختلف عن حب الأنانى لنفسه، كما أنه مختلف عن النرجسية Narcissism. إنه تقدير للذات لأنها جديرة بالعناية والرعاية لما سوف يصدر عنها من أنشطة ذات قيمة. فحب الذات والرضى الذاتى فى هذه الحالة ينتج عن تقدير ما سوف يتم إنجازه. فالذات تكتسب القيمة من الموضوعات التى تضطلع بها حاليًا، والتى ستضطلع بها فى المستقبل، أعنى المهام المستهدفة فى المستقبل التى قام الشيخ بالتخطيط لها، وترسُّم ذلك التخطيط، والعمل على إحالته إلى واقع مطبَّق بالفعل فى حياته.

وعلينا ألا ننسى أن من عوامل إنعاش وترعرع قوة الإرادة، قيام الشخص المسن بتصفُّح منجزاته التى اضطلع بها وأخرجها إلى حيز الواقع خلال سنوات عمره الماضية. فتلك المنجزات تعبِّر عن قدرة المرء على التأثير فى الآخرين. فكلما

استرجع المسن ما تركه من أثر فى غيره، فإنه يأخذ فى استرجاع ما كان عليه من إرادة قوية. والواقع أن عملية التذكر هذه، ليست مجرد عملية معرفية، بل إنها عملية انتعاش وجدانى. فبهذه العملية التذكرية الوجدانية، تحيا الذكريات من جديد، وتدب فيها الحياة. فلكأن المرء ينتقل بالفعل من الحاضر إلى الماضى انتقالاً حقيقيًا وليس مجرد تذكر لذلك الماضى أو استحضاره أمام الذهن. فلكأن الشخص المسن يقوم بتطعيم الحاضر بتلك الذكريات الحية فى قلبه، والتى كانت راقدة نعسانة، ولكنها لم تكن ميِّتة متدثرة بالأكفان. وأكثر من هذا فقد يعمد المسن إلى التطلع إلى تلك الذكريات بمنظار نفسى مكبِّر، فيرى نفسه فى ذلك الماضى الشخصية المؤثِّرة التى كانت ممسكة بأزمَّة الأمور، فيزداد بذلك ثقة بالنفس، وقوة فى الإرادة.

وإذا كان الشخص المُسِن - سواء كان أبًا أم أمًّا - قد أنجب بنين وبنات وقد كبروا وتقلدوا المناصب المرموقة أو حصلوا على المؤهلات العلمية العظيمة، واكتسبوا الشهرة والجاه والسلطان، فإن ذلك التبريز الذى حازه هؤلاء الأولاد يصير بمثابة الوقود الذى يدفع بشخصية المسن إلى الرضى عن النفس مهما كان قد أصيب به شخصيًا من وهن جسمى أو من قُعود عن الاضطلاع بأنشطة اجتماعية جديدة.

فالواقع أن الأب المسن أو الأم المسنَّة يحسان بأن ما يتمتع به أولادهما من عظمة وسؤدد، إنما هو فى الواقع من نصيبهما أيضًا. فهؤلاء الأولاد هم الامتداد الطبيعى لهما. فهما يشاهدان وجودهما فيهم. إذن فالشيخوخة لا تجد سبيلاً إليهما مادام يشاهدان أولادهما بخير وسعادة وفى أوضاع اجتماعية مرموقة. ولكن تلك المشاعر الإيجابية التى تساعد المسن على تقوية إرادته ودعمها وإنعاشها، كثيرًا ما تتواكب مع بعض الخدمات النفسية أو الثقافية أو الاجتماعية التى يُسّديها الأب المسن أو الأم المسنَّة إلى أولادهما. فلقد يقومان برعاية الصغار ويقومان على خدمتهم وتعليمهم وتوجيههم وحل مشكلاتهم. وهم بهذا يكتشفان أنهما لم ينسحبا إلى الظل ولم يصيرا ضمن الشخصيات الهامشية التى يتمنى المحيطون بها اختفاءها من الوجود. إن العكس هو الصحيح. فالواقع أن الأسرة الحديثة التى لا تكاد تستقر بالمنزل فى حاجة ماسة إلى خدمات المسنين. فلا يصير البيت خلوًا من وجود من يستقبل الأولاد بعد عودتهم من المدرسة.

ولقد يوسِّع الشخص المسن دائرته الاجتماعية. فلا تقتصر جهوده على خدمة الأحفاد، بل يقوم بالامتداد بخدماته إلى أبناء الجيران، فيقوم بمساعدتهم فى تفهُّم دروسهم مادام أنه قادرا على ذلك. وإنك لتجد الكثير من

المسنِّين يُسْدون خدمات لا تقدَّر بمال إلى المحيطين بهم، سواء كانوا أقرباء أم غرباء عنهم. والكثير من المسنين من أصحاب الخبرات الاجتماعية العظيمة يعكفون على كتابة مذكراتهم التى يتلقفها الناشرون لما تحمله من قيمة أدبية أو اجتماعية عظيمة. وبذا يثبتون أن إرادتهم ما تزال نابضة بالحيوية والتدفق المستمرين.

★★★

الفصل الثالث

قوة الإرادة عند الجنسين

إرادة الحياة :

لقد سبق أن قلنا إن الجنين فى بطن أمه يتمتع بما أسميناه « بقوة الإرادة البيولوجية ». وقد ذهبنا إلى القول بأن هذه الإرادة البيولوجية هى القاعدة العريضة التى تنبثق منها الأنواع المتباينة لقوة الإرادة. والواقع أن قوة الإرادة بأنواعها وأشكالها المختلفة، تعمل جميعًا على استمرار بقاء الأفراد من جهة، وعلى استمرار بقاء النوع، سواء كان نوعًا بشريًا أم نوعًا حيوانيًا من جهة أخرى. ولكن بالنسبة للإنسان، فإن استمرار البقاء يتخذ له صيَغًا وألوانًا متباينة إلى جانب استمرار البقاء على قيد الحياة بيولوجيًا.

ولعلنا نتساءل : هل هناك قوة إرادة تسبق قوة الإرادة البيولوجية التى تتمثل فى مراحل العمر المتباينة انطلاقًا من المرحلة الجنينية ؟ ولكى نجيب عن هذا التساؤل فإن علينا أن نتناول الخيط من أوله، أى من لحظة الالتقاء الجنسى بين

الذكر والأنثى فى أى نوع من أنواع الكائنات الحية التى يتم فيها الإنجاب بواسطة الاتصال الجنسى. ولكن دعنا نركز كلامنا فى نطاق المملكة البشرية. فنحن نجد أن ثمة قوة إرادة متميزة لعلنا نسميها « إرادة الحياة » تعتمل فى قوام الرجل والمرأة على السواء. صحيح أن هذا النوع من الإرادة يكون مغلّفًا بما يسمى « الشهوة الجنسية» . ولكن تلك الشهوة وإن كانت هى التى تحفز الرجل والمرأة على التقارب والانجذاب الواحد منهما إلى الآخر، فإن الدافع الجوهرى - وهو دافع لاشعورى - هو تلك الإرادة التى أسميناها « إرادة الحياة ».

ومن المؤكد أن « لإرادة الحياة » منبعًا استمدت منه قوتها هى « الإرادة الإلهية » التى لا تعلوها إرادة أخرى. فنحن لا نستطيع أن نتوقف بالتحليل عند حدود « إرادة الحياة »، بل نجد أن من المحتم والمقطوع به أن نبحث عن نقطة انطلاق نشأت عنها هذه الإرادة. وليس من تفسير أو تحليل آخر نستطيع أن نأخذ به سوى القول « بالإرادة الإلهية » منبعًا ومصدرًا لإرادة الحياة.

ونستطيع أن نقول إن « الإرادة الإلهية» هى نقطة الانطلاق الأولى التى تنبعث منها جميع الإرادات بغير استثناء. ولعل أن تكون أهم تلك الإرادات عمومًا هى « إرادة

الحيـاة » التى يشتـرك فـى الاضطلاع بتحـقـيق أهدافهـا الذكـر والأنثى معًا. والعجيب أن « إرادة الحياة» تستعين فى تحقيق أهدافـهـا بدافع قـوى ينطوى على رغـبـة مـحـتـدمـة هـو الدافع الجنسى، ومـا يعتمل فيه من شهوة جنسية، مما يحـمل الرجل والمرأة جـمـيـعًا على الإقـبـال على المضـاجـعـة أو المعـاشـرة الجنسيـة. ومعنـى هذا فى الواقع أن الرغبات الجنسيـة ليست هى الأصل والغـاية التى تتـرسـمـهـا إرادة الحـيـاة، بل إن تلك الرغبات الجنسيـة ليست سوى وسيلة تتذرع بها هذه الإرادة لتحقيق أهدافها التى تتلخص فى حفظ النوع واستمرار تجدُّده جيلاً بعد جيل.

والواقـع أن «إرادة الحـيـاة» لا تـقف فى عـملهـا عند حـد الاتصـال الجنسى بين الـرجل والمرأة، وحـملهـمـا علـى ممارسة ذلك الاتصـال الجنسى وهمـا يحسان بالرغبة الواحد منهما فى الآخر، بل تتـعـدى ذلك إلى الربط برباط وثيق للغاية فيـمـا بين الجنين وبين أمـه. فالجنين وإن كـان متمايزًا عن الأم من حيث إنه كـائن حى وهى كـائن حى آخـر، فـإن ارتبـاطه بهـا وهو فى نطاق أحشـائهـا هـو ارتبـاط اتحـادى. « فـإرادة الحـيـاة » قـد جـعلت من هذا الاتحـاد ضـمـانا لحسن رعـاية الأم لجنينهـا خلال تسعـة أشهـر يكون خلالهـا فـى غاية الضعف والعجـز عن أن يجعل من نفسـه كائنًا حيًا يقـوم ببـعض الأنشطة الإيجـابيـة

التى تضمن له ولو الحد الأدنى من البقاء. فهو وإن كان متمتعًا بالإرادة البيولوجية، فإنه يكون عاجزًا فى الوقت نفسه عن الخروج من تلك البيئة الحشوية إلى البيئة الطبيعية. فالواقع أن قوامه البيولوجى لا يسمح فى هذه المرحلة العمرية بمجابهة البيئة الطبيعية بما تتضمنه من تقلبات جوية ومن درجات حرارة متغيرة، وبما تموج به هذه الطبيعة من أخطار طبيعية، ومن آفات وجراثيم. فأحشاء الأم تعتبر أحسن مخبأ اختارته « إرادة الحياة » لحماية الجنين من المخاطر الكثيرة التى تزخر بها البيئة الطبيعية حتى يكون مستعدًا للعيش فيها بعد نضجه بالدرجة الكافية وبعد أن يكون قد قضى تسعة أشهر فى أحشاء الأم. أما الأطفال الذين يولدون قبل هذه الفترة المفروضة للحمل - أى تسعة أشهر - فإنهم يكونون فى الأغلب معرَّضين لمخاطر تلك البيئة الطبيعية.

على أن إرادة الحياة لا تكتفى بضمان هذه الحياة البيولوجية للجنين فى بطن الأم لمدة الحمل الطبيعية، بل إنها تتذرع بذريعة أخرى هى فى هذه المرة ذريعة وجدانية. فالأم فى حملها للجنين لا يكون شأنها شأن من يحمل عبئًا يرغب فى التخلص منه، أو من يصاب بورم يتمنى إعْمال مشرط الجراح فيه والقضاء عليه، بل إنها تحس نحو ذلك الكائن الحى بفيض من الحنان والارتباط الوجدانى. والواقع أن هذا

الحنان الذى تحس به الأم الحامل، ليس عاطفة مستحدثة فى قوامها النفسى بعد حدوث الحمل، بل إنه قوام من قوامها النفسى منذ أن سُلِّحت الانثى بتلك الغريزة الأمومية منذ باكورة حياتها، حتى تكون أمًّا من الناحية النفسية قبل أن تصير أمًّا بالفعل.

ومن الطبيعى أن الأنثى عندما تصير حاملاً بالفعل، فإن ما تحس به تجاه الجنين فى بطنها يكون أقوى بكثير مما كانت تحس به نحو الطفولة خلال سنى حياتها السابقة قبل الزواج وقبل الحمل. وكلما مر يوم على حملها، فإن ثمة زيادة فى العاطفة تحس بها نحو جنينها. فهى ترتبط به وجدانيًّا أكثر فأكثر، وتكون مشوقة لمشاهدته طفلاً بعد ولادته. إنها تقضى الساعات وهى تسرِّح الطرف فى شكله وتكوينة، متمنية أن يكون متمتعًا بموفور الصحة، وأن يكون خاليًا من أى عيب خِلْقى.

فهى إذن تنخرط فى عمليات تفاعلية بين العاطفة والعقل. ومن هنا فإنها لا تتوقف عند لحظة الميلاد، بل إنها كثيرًا ما تنخرط فى أحلام يقظة تتعلق بالمستقبل الذى سوف تشاهد فيه طفلها هذا الذى سوف تلده، وقد صار شخصًا مكتمل النمو. فلسوف يأتى اليوم الذى تشاهده فيه تلميذًا ثم

طالبًا ثم شخصًا مسئولاً فى ميدان ما من ميادين الحياة. ومن الطبيعى أنها تترسَّم فى ذهنها السياسة التربوية التى سوف تأخذ بها طفلها. إنها تحبه ومن ثم فإنها إذن سوف لا تؤذيه. ولكن هل سوف تضربه إذا عصى ما تأمره به؟ إنها قد تعكف على الكتب والمجلات وبرامج الإذاعة والتلفيزيون تستمد منها فلسفتها التى سوف تتبعها فى المستقبل مع طفلها بعد أن تلده وتصير مسئولة عن رعايته.

ومن المؤكد أن للزوج دورًا كبيرًا أيضًا يكلَّف به من قِبَل « إرادة الحياة ». فالزوج الذى يحب زوجته، يتعلَّق بالجنين الذى تحمله فى أحشائها. ولكن ارتباطه الوجدانى به مستمد من شعوره بأنه جزء منه من جهة، وأنه جزء لا يتجزأ من جسد زوجته التى يحبها من جهة أخرى، وكلما توطدت العلاقة بين الزوج وزوجته ، وازدادت أواصر المودة والوئام بينهما، زادت بالتالى مشاعره نحو الجنين الذى فى بطنها حبًا وتعلُّقًا وارتباطًا. « فإرادة الحياة » تعمل عملها إذن فى قلب الزوج، كما تعمل عملها فى قلب الزوجة. ولكن مما لا شك فيه أن عاطفة الأمومة المحتدمة فى القوام النفسى للأم الحامل نحو جنينها، تكون أقوى بكثير من عاطفة « الأبوة » التى تعتمل فى قلب الأب نحو الجنين الموجود فى بطن زوجته. ولكن مما لا شك فيه أن عاطفة الأمومة وعاطفة

الأبوّة تتباينان بتباين الأشخاص، وما جُبِلوا عليه، وما اكتسبوه من مؤثّرات تربوية تؤثّر جميعًا فى هاتين العاطفتين لدى الأم ولدى الأب.

والواقع أن « إرادة الحياة » لا تتوقف عن العمل والتأثير بعد ميلاد الطفل، بل نستطيع أن نزعم أن هذه الإرادة هى التى تعمل على إنشاء الأسرة المستقرّة بحيث يكون للزوج والزوجة وأولادهما مقر يقطنون فيه، ويأوون إليه، ويحتمون تحت سقفه. وبذا فإن بؤرة عاطفية مشتركة تجمعهم جميعًا بحيث يصير هناك تَعلُّق بتلك البؤرة العاطفية التى تتمثل فى مقر الأسرة. فالواقع أن « إرادة الحياة » تجعل من البيت مكانًا مرغوبًا فيه، بحيث لا يكون من السهل تغييره أو الانتقال منه إلى بيت آخر.

وغنى عن القول إن الطفولة فى حاجة مستمرة إلى العناية والرعاية من جميع جوانب الشخصية. فلو ترك الطفل بغيررعاية مباشرة لمات إذن جوعًا، أو بسبب البرد أو الحر، أو بسبب الأخطار التى تحيط به فى البيئة الطبيعية من كل جانب. والواقع أن « إرادة الحياة » قد عملت على دعم العناية بالناشئة وامتدت بهذه العناية والرعاية إلى ما بعد الطفولة. فبينما كانت رعاية الأسرة فى القبائل البدائية تقتصر على

مرحلة الطفولة، فإنها امتدت فى المجتمعات المتحضرة إلى المراهقة، وإلى جزء كبير من مرحلة الشباب، أو إلى مرحلة الشباب بكاملها . وبعد أن كانت تلك الرعاية لدى القبائل البدائية تقتصر على الجانب الجسمى، بينما كانت تترك باقى الجوانب المتعلقة بالشخصية للتقليد والإيحاء، فإن شخصية الناشئ بالمجتمعات المتحضرة صارت خاضعة للأصول التربوية والتعليمية. فلم تَعُد الأسرة وحدها هى الكفيلة بحماية الناشئة، بل إنها استعانت بالمدرسة وبالمؤسسات الإعلامية فى هذه الرعاية. وهى جميعًا تعبِّر عن « إرادة الحياة » للناشئة، وقد امتدت بمعنى الحياة إلى آفاق وجوانب متباينة، فلم يَعُد مفهوم الحياة مُنّصبًا على الجانب البيولوجى وحده، بل امتد إلى جميع جوانب الشخصية، فصار للحياة العديد من المعانى مثل الحياة العقلية، والحياة الاجتماعية، والحياة الروحية، إلى غير ذلك من معان أخرى اكتسبها لفظ « الحياة ».

وخلاصة القول أن « إرادة الحياة » تلعب دورا هائلا بالنسبة للزوجين، حتى لقد نقول إنه لولا « إرادة الحياة » واعتمالها فى القوام البيولوجى والنفسى لدى الجنسين، لحكم إذن على الجنس البشرى بالهلاك الأكيد.

إرادة التضحية :

ترتبط « إرادة التـضـحـيـة » ارتبـاطًا وثيـقًا « بإرادة الحياة ». ذلك أن « إرادة الحياة » فى حاجة إلى درع يحميها. فـتـجـد ذلك الدرع فى نوع جـديد من الإرادة هى « إرادة التـضـحـيـة ». وعلينا قبل أن نعـرض لإرادة التـضـحـيـة أن نستعرض أنواع التضحية الأساسية. وهى خمسة أنواع على النحو التالى :

أولاً - التضحية القَبْلية أو المبيَّتة : وهذا النوع من التضحية يكون فيه المرء قد ترسَّم صورة ذهنية واضحة لما سوف يضحى به، كما يكون قد أعَدَّ طاقة نفسية يقوم بإنفاقها فى الموقف أو المواقف التى سوف يبذل فيها التضحية، كما يكون قد أعد العُدَّة للعمليات التى سوف يستعين بها فى التضحية، والأشياء التى سوف يضحى بها. فالرجل الثرى الذى يضحى بجانب كبير من ثروته لبناء ملجأ لليتامى أو دار للمسنين، تكون تضحيته هذه قد ارتسمت فى ذهنه فكرًا وخُطَّة، ثم إنه يكون قد تحفز وجدانيًا لتنفيذ فكرته، ثم إنه أخيرًا يكون قد أعد العُدَّة ووفر المال واتخذ الإجراءات التى يمكن أن تحيل تصوره الذهنى إلى واقع فعلى.

ثانيًا - التضحية البَعْدية أو التقبُّلية : وفى هذا النوع من التضحية، فإن التضحية تأتى أو تحدث أولاً، ثم تَتلوها

عملية عقلانية هضمية أو تبريرية مدعَّمة بطاقة وجدانية.
ولنضرب مثالاً لذلك برجل كان متجهًا بسيارته مع أسرته إلى المصيف، فانقلبت بهم السيارة وتحطمَّت، ولكن من حسن الحظ فإن أحدًا لم يصب بأى أذى، ولكن برنامج الرحلة ألغى، ورجع الرجل وأسرته إلى بيتهم. لقد خيَّم عليهم الحزن والكدر لبعض الوقت، ثم ما فتئوا أن هضموا الموقف، وقد أحاط بهم أحباؤهم يهنئونهم بالنجاة من كارثة محققة، فأخذوا يترسَّمون الموقف، و يقارنون بين تحطم السيارة مع نجاتهم، وبين تحطم السيارة وموت أحد أفراد الأسرة. وحتى السيارة التى تحطمت فقد أمكن إصلاحها. وهكذا انقلب التبرُّم إلى رضى، وقد ساعد ما استعانوا به من وجدان متفائل فى تقبُّل ما خسروه من مال ومن متعة كانوا سيسعدون بها فى المصيف، لو لم تنقلب بهم السيارة. فالتضحية هنا بَعْدية أو تقبُّلية.

ثالثًا - التضحية الطفرية أو الآنية : ومن أمثلة هذا النوع من التضحية، الشخص الذى خرج عليه قاطع طريق فى مكان مهجور وأشهر فى وجهه السلاح، مخيِّرًا إياه بين أمرين : فإما أن يسلِّمه جميع ما يحمله من نقود ومنقولات وبين أن يُقتل. فما كان من صاحبنا إلا أن قام بتسليم قاطع الطريق كل ما يحمله من مال ومتاع. فالتضحية هنا بالمال أتت لحظيًا.

صحيح إنها تضحية إجبارية، ولكنها تضحية على كل حال، وذلك لأنه كان مخَيَّرًا بين أمرين، فاختياره بتسليم المال هو تضحية بالمال فى سبيل عدم التعرض للموت. وطبيعى أن الوقت الذى قضاه فى الاختيار كان قصيرًا جدًا، ومن ثمَّ فإننا ننعت هذا النوع من التضحية بأنها تضحية طَفْرية أو آنيَّة.

رابعًا - التضحية الفردية : وهذا النوع من التضحية، يضطلع به شخص واحد فى موقف معيَّن. ومن أمثلة ذلك، قيام الزوج المحب لزوجته بالتبرع بإحدى كليتيه لإنقاذ حياتها المهددة بسبب حدوث عطب فى كليتيها جميعًا. فهنا نجد أن من قام بالتضحية هو شخص واحد، ولذا فإن هذا النوع من التضحية هو تضحية فردية.

خامسًا - التضحية الجمعية : وفى هذا النوع من التضحية نجد أن من يقبلون على التضحية أشخاص متعددون. وخير مثال لهذا النوع من التضحية تلك المجموعات الانتحارية التى يتطوع أفرادها لتشكيل فرق تقوم بمهام هجومية محفوفة بالخطر من كل جانب ، ويكون أمل النجاة معدومًا أو شبه معدوم. فمهمة هذه المجموعات الانتحارية تتلخص فى إيقاع الخسائر فى صفوف الأعداء، مع الاحتمال الأكبر لتعرضها هى أيضًا للهلاك. فالمجموعة الانتحارية

تشكل فى الواقع قواما بيولوجيا ونفسيا واحدا، إذ أنها تستحيل إلى شخصية معنوية وروحية واحدة، ويكون لها فكر واحد، ووجدان واحد، وإرادة تنفيذ انتحارية واحدة.

وبعد أن عرضنا لأنواع التضحية الخمسة، فإن علينا أن نعرضً لإرادة التضحية عند الجنسين. ولنبدأ بإرادة التضحية عند المرأة على النحو التالى :

أولاً - إن المرأة وهى مسوقة بإرادة الحياة، تقدم التضحيات الكثيرة فى أثناء الحمل والولادة، بل إن الكثير من النساء يتألمن منذ المراهقة لدى مواتاة الدورة الشهرية لهن. ومن المعروف أن الدورة الشهرية تعتبر من الزاوية البيولوجية علامة على استعداد الأنثى للحمل والولادة. والمرأة فى معاناتها لآلام الحمل والولادة، تكون متقبلة لها وراضية عما يحدث لها، وهى تعلم أن هناك احتمالاً لما يمكن أن تحمله الولادة معها من خطر على حياتها. وعلى أقل تقدير، فإن كل حمل وكل ولادة، يعمل على استلاب المرأة لجانب من صحتها. ولم لا والجنين الذى يظل فى بطنها تسعة أشهر، يتكوَّن وينمو وينضج على حسابها بيولوجيًا، دون أن يصل إليه أى غذاء من خارج نطاقها الجسمى. أضف إلى هذا ما يمكن أن تتعرض له المرأة من أمراض وأسقام بسبب الحمل والولادة.

ثانياً - والمرأة بعد أن تلد طفلها، تقدِّم التضحيات الكثيرة من أجله. فهي لا تكتفي بالقيام بتغذيته بلبانها الذي يشكِّل المصدر الوحيد لغذائه، بل إنها تقضي الليالي ساهرة إلى جواره. فإذا ما استيقظ استيقظت معه، وإذا انفجر باكيا، فإنها تسارع إلى حضنه وتقبيله، إذ ربما يكون بحاجة إلى جرعة من الحنان. فإذا لم يهدأ واستمر في البكاء، فإنها تسارع إلى إرضاعه، إذ ربما يكون قد أحس بالجوع، وإذا لم تنفع معه الرضاعة، فإنها تسارع إلى تحسس ملابسه، فربما يكون قد بللها أو تبرز فيها، فتقمِّطه بملابس نظيفة. وهكذا تستمر الأم في مراقبتها لطفلها. وحتى إذا هي انخرطت في النوم، فإنها تكون على استعداد تام للجري إليه في أي لحظة من لحظات الليل، وهي في تضحيتها بالنوم والراحة، تكون من جهة أخرى مدفوعة نحو الاستمرار في تلك الرعاية المستمرة والسهر الدائب، أو النوم المتقطع.

ثالثاً - والأم وهي تقوم بتنظيف طفلها، أو عندما تخلع عنه الأقمطة والملابس الداخلية التي اتسخت وتقوم بغسلها، فإنها لا تحس بالتقزُّز. وحتى إذا هي أحست بذلك، فإنها تتقبل مهمة القيام بتنظيف طفلها بصدر رحب. وإذا تقيأ فإنها لا تتوانى عن تنظيف المكان الذي تقيأ فيه. ونحن إذ نقرر هذا، فإننا نقصد الأمهات السويَّات دون الأمهات اللائي

أطفأت الظروف الحضارية أمومتهن. ذلك أن الحضارة قد تخطئ طريقها، فتفسد الطبيعة التى جبلت عليها المرأة، وتنحرف بتلك الطبيعة التى جُبِل عليها الإنسان، وتكسبه تطُّبعًا مباينًا أو حتى معارضًا لتلك الطبيعة. والأمومة السوية، هى تلك الأمومة التى لم تقم الحضارة بَلَىِّ عنقها، والانحراف بها عن قوامها الأصلى. من هنا فإنك تجد النساء اللائى فقدن ما تتسم به الأمومة الطبيعية من سمات، وقد أخذن يتبرَّمن بما يثير اشمئزازهن، فيُوكلن تنظيف أبنائهن للخادمات أو نحوهن.

رابعًا - الواقع أن « إرادة التضحية » المعتملة فى قوام الأم، تحملها على الدفاع ضد أى خطر يتهدده، حتى ولو كان فى ذلك خطر على حياتها. ومعنى هذا فى الواقع، أن الأم تفضِّل طفلها على نفسها، أو بتعبير آخر، فإنها ترجِّح كفة بقاء ابنها، على كفة بقائها. وهل من تضحية أعظم من تضحية الأم بحياتها من أجل ابنها لإنقاذ حياته من خطر داهم مُقْبل عليه يتهدده ؟

خامسًا - ومن شواهد تضحية الأم من أجل طفلها، تفضيله على نفسها، وتقديم حاجاته ورغباته على حاجاتها ورغباتها. فهى قد تجوع لتشبع طفلها، وقد تعرض نفسها

للبرد لكى يتمتع طفلها بالدفء. وهذا يدل على أن « إرادة التضحية » تعتمل بعمق فى القوام النفسى للأم.

وعلينا بعد هذا أن نعرض « لإرادة التضحية » عند الرجل. ولعلنا نجد أنشطة هذه الإرادة تتبدى على النحو التالى :

أولاً - استعداد الرجل للتضحية بالمال والوقت، والتعرُّض للخطر من أجل المرأة التى يحبها، ويرتبط بها. فَلكَم تعرَّض الرجال للجراح والقتل عَبْر التاريخ من أجل النساء ! وتحتدم « إرادة التضحية » عند الرجل عندما ينازعه رجل آخر فى حب المرأة التى ملكت عليه قلبه. ولقد ظلت المبارزات ردحًا طويلاً من الزمن حتى العصر الحديث لحسم التنافس على حب امرأة بالذات. وكانت المبارزة تنتهى بقتل واحد منهما فيفوز الرجل المنتصر بالمرأة التى كانت تعجب به لأنه عرَّض حياته للخطر من أجلها. وما تزال تضحية الرجل من أجل المرأة مستمرة حتى العصور الحديثة، وإن كانت تتلبَّس بصيغ متباينة، كما أن لكل مجتمع تقاليده وأعرافه التى ينهج وَفْقها فى هذا الشأن.

ثانيًا - وكذا فإن « إرادة التضحية » لدى الرجل يحتدم أوارها عندما تتعرض النساء أو عندما يتعرض الأطفال للخطر

أو المعاكسات أو لمحاولات هتك العرض أو الاغتصاب، فتقابل عادة من قبَل الرجال بمنتهى العنف. فالرجل الذى يهاجمه بعض الشباب وهو سائر مع زوجته أو خطيبته أو ابنته للاعتداء عليها أو لخطفها، لا يقف مستسلمًا مهما كان أعزل، ومهما كانت قوة المعتدين، بل يعرِّض نفسه للخطر والتضحية حتى بحياته من أجل الأنثى المعتدى عليها، أو التى يحاول الشبان اختطافها أو حتى مضايقتها.

ثالثًا – والواقع أنه منذ القدم فى العهود البدائية كان الرجل منوطًا به الدفاع عن الزوجة أو الزوجات والأطفال. فبينما كانت مهمة المرأة رعاية شؤون المنزل والقيام على خدمة الأطفال، فإن الرجل كان مُكَلفًا بالإنفاق على أسرته من جهة، وحمايتها من الأخطار المحدقة بها، سواء من الوحوش المتربِّصة، أم من رجال القبائل الأخرى الذين كانوا ينتهزون الفرص للانقضاض واختطاف النساء والأطفال والمَتَاع من جهة أخرى. وكانت « إرادة التضحية » متحفِّزة باستمرار فى قلوب الرجال، ومستعدة للتعبير عن نفسها فيما يسلكونه، وفيما يتخذونه من مواقف وتصرفات.

رابعًا - وكذا فإن « إرادة التضحية » كانت تتبدى ومازال فى كثير من الأقطار فى قيام الرجال بتحمل أعباء

الأعمال المُضّنية التى لا يتحملها التكوين الجسمى للمرأة. والواقع أن الحضارة قد خففت من قوة « إرادة التضحية » عند الرجل، وذلك باحتلال الآلات الكثير من مواقع العمل، وصار الكثير من الأعمال والوظائف لا يحتاج إلى القوة العضلية. فصارت الوظائف المكتبية وغيرها مما لا يحتاج إلى قوة عضلية مَنُوطة بالرجال والنساء على السواء. ناهيك عن أن البنية الجسمية للرجل الحديث قد ضعفت بشكل عام، ولم يَعُد هناك ما يبرر اعتمال إرادة التضحية عند الرجال فى هذا المضار.

إرادة الفكر :

تعمد « إرادة الحياة » إلى الاستعانة بإرادة أخرى هى « إرادة الفكر » التى تعتمل فى قوام الرجل والمرأة على السواء مع التباين فى المناحى التى تتخذها هذه الإرادة لدى كل منهما. بيد أن هذا التباين لا يعنى التعارض فيما بينهما، بل يعنى التكامل، فيكمِّل فكر الواحد منهما فكر الآخر. ذلك أن لكل منحى فكرى لدى الرجل والمرأة وظيفته وأهميته وميزاته التى لا تتوافر لدى الطرف الآخر. ولعلنا نبدأ بتناول فكر الرجل وما يتسم به من سمات على النحو التالى :

أولاً - الهدم والبناء : الواقع أن لدى الرجل، عمليتين

أساسيتين تتكاملان بعضهما مع بعض : العملية الأولى هى عملية الهدم، والعملية الثانية هى عملية البناء. فبمقتضى العملية الأولى، فإن الرجل يعمِد إلى هدم أنظمة فكرية قائمة، لتحل محلها أنظمة فكرية أخرى بديلة. وعلى الرغم من أن الرجال جميعًا يتَّسمون بهاتين النزعتين، فإنهم يختلفون بعضهم عن بعض فيما يعمِدون إلى هدمه وبنائه، وذلك بسبب اختلاف ثقافاتهم، وبسبب بعض العوامل النفسية، وما تشرَّبوه من قِيَم واتجاهات ذهنية. فواحد مثل أرسطو قام بهدم ما شيده أستاذه أفلاطون من نظام فلسفى، وأحل محله نظامًا فلسفيًا جديدًا. ومما لا شك فيه أن هاتين النزعتين نحو الهدم والبناء ترتبطان بالخبرات السلَفية التى تضرب بجذورها حتى القبائل البدائية وما بعدها، حيث كان على الرجل أن يهدم صروح أعدائه، وأن يقيم لنفسه ولعشيرته صروحًا جديدة. وهكذا تشكَّلت لدى الرجل نزعة نفسية عقلية نحو الهدم والبناء باعتبار أنها امتداد واستمرار لما ترسَّب لديه من خبرات قديمة استحالت إلى طبيعة فى قوامه وبنيته الذهنية.

ثانياً - التحليل والتركيب : ليس من شك فى أن هناك ارتباطًا وثيقًا فيما بين النزعة السابقة الخاصة بالهدم والبناء وهذه النزعة التى نحن بصددها الخاصة بالتحليل

والتركيب. ولكن برغم هذا الارتباط، فإن ثمة تباينًا بين الهدم والتحليل من جهة، ثم بين البناء والتركيب من جهة أخرى. فبينما يستهدف الهدم تحطيم ونسف الموجود والقضاء عليه، فإن التحليل قد يكون تحليلاً لشىء محسوس، كما هو الحال فى عمليات التشريح، كما أنه قد يكون تحليلاً ذهنيًا كما هو الحال عندما يقوم المرء بتحليل مفهوم ما من المفاهيم، أو عندما يتناول نصًا ويعمِد إلى تحليله والوقوف على دقائقه. أما بالنسبة للفرق بين البناء والتركيب، فإن البناء يكون منافيًا للهدم أو للشىء الذى تم هدمه. فمثلاً إذا قام بعض الرجال بالثورة على النظام السياسى القائم، ونجحوا فى تقويضه والإتيان عليه، ثم قاموا بإرساء نظام حكم جديد، فإن البناء السياسى الجديد يكون منافيًا للنظام السياسى الذى هُدم، وإلا فلم يكن ثمة داع للقيام بالثروة ضده. أما بالنسبة للتركيب فإن من يضطلع به، لا يكون قصده تشييد بناء يتعارض حتمًا مع ما قام بتحليله، بل يكون قصده عمل مركَّب جديد من العناصر أو المقومات التى تأتت عن التحليل. ولكن هذا لا يمنع دون القيام بإدخال عناصر جديدة لم تكن موجودة فى الكيان الذى تم تحليله.

ثالثًا المقاطع العرْضية : تتجه « إرادة الفكر » عند الرجال إلى عمل مقاطع عرضية للأحداث والوقائع

والخصائص. فلقد يعمِد عالم الاجتماع إلى تناول الأطفال الذين بلغوا الثامنة فى عدة مجتمعات لتحديد النسبة المئوية بمجتمع ما للمشردين الذين لا تُظِلهم أسرة، ولا يجدون أى رعاية من أحد، أو الذين تركوا المدرسة، أو غير ذلك من أحوال. ومن المعروف أن المَقْطع العَرْضى، يختلف عن المَقْطع الطولى. فدراسة الحالة، أعنى حالة شخص بالذات، كالقيام بدراسة حالة أحد معاودى الجريمة، تتطلب القيام بالبدء من حاضره إلى الوراء حيث شبابه ومراهقته وطفولته، وما أحاط به من أحداث وظروف. فمثل هذه الدراسة، هى دراسة ذات مَقْطع طولى.

رابعًا - التجريد والتعميم : « وإرادة الفكر » عند الرجل تدفع به إلى عمليتى التجريد والتعميم. وبمقتضى عملية التجريد، فإن المرء يقوم باستخلاص الخصائص المشتركة بين الجزيئات، وما كان موجودًا منها، وما سوف يوجد منها مستقبلاً. فهو مثلاً قد استخلص الصفات الأساسية المشتركة بين مجموعة من الأشجار، ثم أطلق اسمًا واحدًا هو كلمة « شجرة » على جميع الأشجار الموجودة والتى كانت موجودة، والتى ستوجد فى المستقبل. ونحن نعتقد أن الرجل هو الذى قام بالتجريد والتعميم، ثم قامت المرأة بالأخذ عنه. وما تزال تأخذ عنه فيما يتعلق بهاتين العمليتين بإزاء ما

يقوم بالتوصُّل إليه من نتائج تتعلق بهاتين العمليتين الذهنيتين.

خامسًا - التفاعلات الذهنية : تتبدى إرادة الفكر عند الرجل، فيما يمكن أن نسميه بالتفاعلات الذهنية. فما يستقبله الرجل من انطباعات حسية ويستحيل إلى صور ذهنية، ويختزن جانب منه فى الذاكرة، لا يظل على حاله، بل يتفاعل بعضه مع بعض، لكى يشكل صورًا ذهنية مجردة. والواقع أن ما يتأتى عن العمليات الذهنية التفاعلية من مركَّبات ذهنية جديدة، كثيرًا ما يجد له تعبيرًا إلى الخارج، سواء فى هيئة كلام منطوق أو كلام مكتوب، أم فى هيئة مخترعات، أم فى هيئة علاقات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية مستحدثة، أم فى هيئة نتاجات فنية جمالية أو غير ذلك من نتاجات.

وبعد أن عرضنا لإرادة الفكر عند الرجل، يبقى علينا أن نستعرض إرادة الفكر عند المرأة. ولعلنا نلخص ما تتجه إليه هذه الإرادة الفكرية عند المرأة على النحو التالى :

أولاً - التأثرية والنزعة الوجدانية : إن المرأة حتى وإن كانت مهيأة بطاقة ذهنية قوية، فإن طاقتها الوجدانية كثيرًا ما تقوم بلَىِّ عنق تلك الطاقة الذهنية وأسرها، فتخضع لها.

وتسير وَفق هواها. ونستطيع أن نزعم، أن ثمة صراعًا فيما بين الطاقة الوجدانية والطاقة الذهنية فى دخيلة المرأة. فهى ترغب فى أن تكون عقلانية، فتحكِّم العقل فى شؤون حياتها، وفى الأحكام التى تقوم بإصدارها بإزاء ما يعرض لها من شؤون. ولكنها من جهة أخرى تخشى من أنها إذا ما غلَّبت العقل على العاطفة، فإنها سوف تفقد بذلك جانبًا جوهريًا من قوامها وطبيعتها. فهى إذن تقف موقف الحائر المتردِّد بين نصرة العقل ونصرة العاطفة. ولعل أن تكون هذه هى الأزمة النفسية التى تعتور القوام النفسى للمرأة، وبخاصة المرأة المثقفة التى تتنازعها متطلبات المستوى الثقافى الذى بلغته من جهة، ومتطلبات أنوثتها التى تعتز بها والتى تتصف بالحياة الوجدانية الفائرة المتوهجة بصفة دائمة من جهة أخرى.

ثانيًا - إطلاقية النقد : ويترتب على ما تخضع له المرأة من إرادة فكرية تتسم بالتأثرية والنزعة الوجدانية، عدم قدرتها على إصدار أحكام نسبية بإزاء ما تقوم بإصداره من أحكام. وبتعبير آخر فإنها تنتحى إلى طرف من طرفين متناقضين. والتناقض لا يعرف الوسط وهو مباين للتضاد. فالتضاد كالأسود والأبيض اللذين يقع بينها تدرُّج بين أكثر الأشياء سوادًا وأكثر الأشياء بياضًا. أما التناقض فمثل الصواب والخطأ، أو الوجود والعدم.

فليس هناك وسط بين الصواب والخطأ، ولا بين الوجود والعدم. فهى إذا ما أحبت شخصًا ما، فإنها لا ترى فيمن تحبه أى نقيصة. وأذا كرهت شخصًا ما، فإنها لا ترى فيه أى ميزة.

ثالثًا - القدرة التعبيرية : من الملاحظ أن البنت أسرع من الولد فى النمو الكلامى. فهى تكتسب حصيلة من مفردات اللغة وعباراتها أكثر وأسرع مما يستطيع الولد الواقع فى نفس سنها اكتسابه. وكذا فإنها تكون مهيأة بالحركات والإشارات الحركية أكثر من الولد. والتدفق الكلامى عند المرأة أقوى منه عند الرجل. ولكن يبدو أن الرجال عمومًا أكثر قدرة على التحصيل اللغوى المستمر، وأكثر قدرة أيضًا على نحت كلمات جديدة ومصطلحات مستحدثة، وعلى التطور بلغة الكلام، ولغة الكتابة مما يتاح للنساء بعامة.

رابعًا - سرد الوقائع : من الملاحظ أيضًا، أن المرأة أكثر قدرة على سرد الأحداث والوقائع بحسب ترتيبها. فهى فى استقبالها لزوجها بعد رجوعه من عمله، تأخذ فى سرد الوقائع التى حدثت طوال النهار، دون أن تسقط من الوقائع أدق التفصيلات. وهى فى هذا الصدد تتفوق على الرجل. ولعلنا نزعم آن الرجل يقوم بعملية انتقائية فيما يقوم بسرده.

فهو يستطيع أن يسقط من حسابة الكثير من الوقائع الفرعية. ولعله يَعْرض خلاصة عامة لما حدث دون ذكر التفصيلات. ولكن من الملاحظ أيضًا، أن المرأة قد تَلْوى عنق الأحداث وما فاه به الآخرون من عبارات، أضف إلى هذا أنها كثيرا ما تلوِّن الأقوال بتغمات معينة وتُكسبها مقاصد أخرى ربما لم تَدُر بخَلَد قائليها. ولقد تلوى عنق الكلام ليًّا كاملاً، وذلك بإسقاط بعض الكلمات أو العبارات أو الحركات وملامح الوجه. وقد تذكر حركات وإيماءات وإشارات تزعم أنها صدرت عن المتحدثين من خيالها، ونتيجة رغبات اعتملت فى داخلها. فالمرأة لا تتمتع بشكل عام بالموضوعية بالقدر الذى يتمتع به الرجل. ولكنا لا نزعم أن الرجال جميعًا يتسمون بالموضوعية فيما يذكرونه من أحداث ووقائع. ولكننا نقول بوجه عامٍ إن الرجال أكثر موضوعية من النساء فيما يذكرونه من أحداث ووقائع.

خامساً - القدرة على الوصف : تتمتع المرأة فيما تذكره من أحاديث بالقدرة على الوصف أكثر مما يستطيع الرجل. فهى أكثر قدرة منه على وصف الألوان والأشكال والعلاقات المتعلقة بالأطوال والأحجام والنِّسَب. أضف إلى هذا أن المرأة أقدر من الرجل فى وصف التفاصيل الحركية والشكلية. فهى لا تكتفى بالعموميات، بل تهتم بالخصوصيات أيضًا. ولكنها

كثيرًا ما تقوم بتقديم استنتاجات مبالغ فيها نتيجة ملاحظاتها المتعلقة بالتفاصيل والجزئيات. وكما قلنا، فإن المرأة تميل إلى النزعة الإطلاقية فى الأحكام التى تصدرها بإزاءالأشخاص والأحداث. بيد أن قدرة المرأة على الوصف تظل مرتبطة بالتفاصيل، ولا ترتفع إلى مستوى التعميم. ولعل أن يكون هذا هو السبب فى أن المرأة لم ترتفع إلى المستوى الفلسفى والمنطقى فيما صدر عنها عَبّر التاريخ من نتاجات مكتوبة. ذلك لأنها تظل مرتبطة بالنزعة الوصفية للدقائق والتفاصيل بحيث لا ترتفع إلى مستوى العموميات كما يفعل الرجل.

إرادة التخطيط والتنفيذ :

إننا عندما نتأمل « إرادة الحياة »، فإننا نجد أنها تُوَلِّد نوعًا جديدًا من الإرادة هو « إرادة التخطيط والتنفيذ ». ذلك أن المرء لا يعيش محبوسًا فى إطار الحاضر فحسب، بل إنه يتشوَّف المستقبل أيضًا. فهو يتخيل المستقبل، لا كما سوف يحدث تلقائيًا بغير تدخل من جانبه، بل يتخيل المستقبل كما يجب أن يكون عليه. فهو يحدث إذن تفاعلاً فيما بين المستقبل المتوقع أو المستقبل كما يترتب على الماضى والحاضر، وبين المستقبل كما يبتغيه، أو كمثل أعلى مُرْتَجى. فعلى المرء أن يتخيل كيفما يشاء له الخيال، ولكنه فى تخيله

المنطلق والمؤمَّل، يجب عليه إن يضع فى اعتباره حقيقة هامة، هى أن خياله المتحرر من قيود الواقع، يجب أن يخضع أراد أم لم يرد لعملية التفاعل التى أشرنا إليها فيما بين الواقع المستقبلى وبين خياله التحررى غير المقيَّد بقيود وحدود الواقع، وإمكانات ذلك الواقع.

والواقع أن التخطيط بأنواعه وأهدافه المتباينة، إنما ينبع من عملية عقلانية يضطلع بها المخطِّط أو المخططون هى عملية تقييم الواقع الآنى، وتبيُّن النقائص التى تشوبه من جهة، وتقييم ذلك الواقع الآنى بمقارنته بمتطلبات المستقبل من جهة أخرى. ومعنى هذا فى الواقع أن ما يترسَّمه المخطِّط أو المخطِّطون لا يكون صورًا ذهنية تعتمل فى مخيلاتهم أو صورًا لرغباتهم الشخصية، وإنما التخطيط يقوم فى الحقيقة على خلفية ذهنية مستمدة من الواقع كما هو حادث بالفعل، وما يشوب ذلك الواقع من عيوب تُعَطِّل المرء أو الجماعة، أو ما سوف يشوبه من نقائص وعيوب، إذا ظل بغير تعديل وتطوير لكى يناسب المستقبل كما يتخيله المخطِّط أو المخطِّطون.

ومما لا شك فيه أن الرجل والمرأة منذ القدم، وهما يضطلعان بعمليات التخطيط والتنفيذ على السواء. بيد أننا

نستطيع أن نقول إن الرجل اهتم بالتخطيط والتنفيذ لدائرة واسعة، هى دائرة البيئة التى تقع خارج إطار البيت، بينما ركزت المرأة التخطيط والتنفيذ فى نطاق البيت، وما يشتمل عليه من أشياء، وما يضمه من أشخاص. ولعل أن يكون ذلك راجعًا إلى شدة تعلُّق المرأة بالبيت والأولاد أكثر مما يتمتع به الرجل. فالمرأة أكثر تعلقًا ببيتها وما يضمه فى نطاقه من الرجل. وحتى بعد أن خرجت المرأة إلى رحابة الحياة العملية، فإنها ما تزال بصفة عامة مرتبطة نفسيًا ووجدانيًا ببيتها، وما يشتمل عليه من أشياء وأشخاص.

ومعنى هذا فى الواقع أن الرجل يَتَّسم بالموضوعية فى التخطيط والتنفيذ، بينما تَتَّسم المرأة بالذاتية فيما تضطلع به من تخطيط وتنفيذ . ولكن المرأة إذا ما فشلت فى حياتها الزوجية، أو لم تتزوج على الإطلاق، وقامت بتكريس حياتها ونشاطها لعملها، فإنها فى هذه الحالة تنقل اهتمامها العاطفى إلى مقر عملها، وتجعل من الناس الذين تتعامل معهم أسرة لها، فتدير عاطفتها حولهم، وترتبط بهم وجدانيًا كأشد ما يكون الارتباط. ولكنها إذا غضبت وحنقت على أحد مرءوسيها، فإنها تحاول التنكيل به، وتنتقم منه أشد تنكيل وأشنع انتقام.

والمرأة عندما تعجب بشخص أو أشخاص أو باتجاه أو بمبدأ، فإنها تظل مخلصة له ومقتفية أثره لا تريم عنه، ولا تثور ضده، ولا تشق عصا الطاعة عليه، وهى فى الأغلب تتخذ مثلها الأعلى فى التخطيط والتنفيذ من أحد الرجال وليس من إحدى النساء. ويبدو أن هذا يرجع إلى أن المرأة تغار من أى امرأة أخرى، بينما تنجذب إلى الرجال، وتتخذ منهم نبراسًا لها.

أما الرجل فإنه بإزاء التخطيط والتنفيذ يمر فى مرحلتين : المرحله الأولى : هى مرحله اتخاذ مثل أعلى يسير فى ظله، ويقفو أثره، بل ويتقمص شخصيته. أما المرحلة الثانية، فهى مرحلة الثورة والعصيان، وتوجيه النقد اللاذع إلى ذلك المثل الأعلى الذى ضرب فى إثره، واقتفى أثره. بيد أن ثورة الرجل فى المرحلة الثانية، لا تكون بقصد الهدم، بل تكون من أجل البناء. فهو فى نقده لمثله الأعلى الذى اتخذه فى المرحلة الأولى، لا يعمِد إلى هدم الخطوط العريضة، بل يعمِد إلى هدم الفروع والتفاصيل فحسب. من هنا فإن ما يقوم بالتخطيط له وتنفيذه لا يمس الجذع الذى استمده من مثله الأعلى، بل ينصب على التفاصيل أو على الشكل الخارجى فحسب. ولنأخذ مثالا بما فعله أرسطو بإزاء فلسفة أفلاطون أستاذه. فعلى الرغم من أن فلسفة أرسطو لها طابعها المتميز.

فإنها احتفظت بالجذع الرئيسى فى فلسفة أفلاطون. كما يقال فإن أرسطو أنزل المُثُل من السماء إلى الأرض. ولكنه احتفظ بجوهر المُثُل . ومعنى هذا فى الواقع أن الطريق نحو الإبداع مفتوح أمام الرجال، وذلك لأنه عندما يقوم بتوجيه النقد إلى من اتخذه مثلاً أعلى له، فإنه يقيم بناء جديدًا بدلاً من الجانب أو الجوانب التى قام بهدمها، والإتيان عليها.

وليس من شك فى الواقع أن تاريخ البشرية الطويل والمفعم بالصعاب والآلام والكفاح، قد ترك أثره العميق فى طبيعة الرجل والمرأة على السواء. فلقد اتسمت طبيعة الرجل بالفتوَّة والدأب وتحمُّل المشقات والكفاح لتذليلها. ناهيك عن أن الخبرات الكثيرة التى اكتسبها الرجال عَبْر الأجيال المتعاقبة، قد جعلت لدى الرجل الاستعداد لوضع الخطط الناجعة. ولكن فى المقابل، فإن المرأة بدورها قد اكتسبت من خلال الخبرات التى مرت فيها النساء عَبْر الأجيال الكثيرة المتعاقبة نوعًا آخر من التخطيط المتعلق بشئون البيت وشئون زوجها، لا يقل فى أهميته وخطورته عن التخطيط الذى اكتسبه الرجل. ولعلنا لا نخطئ إذا ما قلنا إن هناك تكاملاً واتساقًا فيما بين تخطيط الرجل بالخارج وتخطيط المرأة بالداخل.

على أننا نعترف مع هذا بأن الحضارة بتطوراتها المتلاحقة قد عملت على مسخ طبيعة الرجل وطبيعة المرأة على السواء. فالمرأة بعد تحررها من قيود البيت، صارت تقلِّد الرجل فيما يتعلق بالقدرة على التخطيط لما هو خارج البيت، كما أن الرجل بدوره صار فى كثير من الأحيان مضطرًا لسد الفراغ الذى تركته المرأة فى البيت، فأخذ يقوم بالتخطيط لشئون البيت والأسرة، والنتيجة المترتبة على هذا أن المرأة لم تستطع النهوض بالتخطيط الذى ظل عَبْر قرون عديدة من مسئولية الرجل، كما أن الرجل لم ينجح في التخطيط لشئون البيت، وهو التخطيط الذى اكتسبت المرأة بإزائه كل قدرة وإتقان بفضل ما اكتسبته من خبرة عَبْر الأجيال المتعاقبة.

ولعلك تشتم من هذا أننا نؤمن بتوارث الاستعدادات الخبرية. إننا بالطبع لا نؤمن بتوريث الخبرات ذاتها، وإنما نؤمن فقط بإمكان توريث الاستعداد لاكتساب أنواع معينة من الخبرات. فالرجل صار مستعدًا من خلال ما اكتسبه من خبرات عديدة منذ عهود القبائل البدائية لاكتساب خبرات معينة، وكذا المرأة أيضًا. وهذا ينسحب بالطبع بإزاء الخبرات المتعلقة بالتخطيط والتنفيذ. ولعلنا نزعم أن إرادة التنفيذ عند الرجل أقوى منها عند المرأة، ولكن هذا يجب ألا يؤخذ على الإطلاق. فثمة مجالات تنفيذية يكون للمرأة باع فيها

أطول من باع الرجل، والعكس أيضًا صحيح. كذا فإن ثمة فروقًا فردية بين امرأة وأخرى من جهة، وبين رجل وآخر من جهة أخرى. ناهيك عن الأمراض النفسية المتعلقة بالإرادة التى يمكن أن تصيب المرأة والرجل على السواء. وما يتم لكل منهما اكتسابه من خصائص أو سمات شخصية منذ نعومة الأظفار، وتستمر فى النمو والاعتمال فى قوامهما وفى أنحاء سلوكهما عبْر مراحل العمر التالية.

ومن الواضح بالطبع أن المرء - بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة - يكون قوى الإرادة التخطيطية أو قوى الإرادة التنفيذية فى بعض الميادين، بينما لا يكون على القدر نفسه من مستوى قوة الإرادة فى هذين المجالين التخطيطى والتنفيذى فى مجالات أخرى. فمدرب كرة القدم مثلاً، يحتمل أن يكون قوى الإرادة فى التخطيط للمباريات التى سوف يشترك فيها فريقه ، وفى تنفيذ الخُطَط التى يضعها أكثر منه هو نفسه بإزاء ميادين أخرى يحاول التخطيط لها، أو الاضطلاع بالخطط التى يضعها. وكذا يقال عن المرأة. فلقد تتفوق إحدى النساء فى التخطيط والتنفيذ لحياكة ملابسها وملابس أبنائها، بينما لا تكون على المستوى نفسه من القدرة التخطيطية أو التنفيذية فيما يتعلق بشئون المطبخ.

وبالنسبة للمجال التعليمى والثقافى، فإن من الملاحظ أن الرجل دون المرأة يستطيع أن يشق خطوطًا جديدة غير مسبوقة فيما بتعلق بالإبانة والإسهام الثقافى . وبتعبير آخر فإن الإبداع الخَلقى غير المسبوق، أعنى التعبير غَير الاستنادى إلى مصادر يستقى منها المرء ما يقوم بتقديمه فى المجال الثقافى، هومن حظ صفوة من الرجال. ونقول « صفوة » لأن نُدّرة من المتعلمين المثقفين من الرجال هم الذين يتسنى لهم هذا النوع من الإبداع الخَلّقى غير الاستنادى. وفى المقابل فإننا نجد ما أطلقنا عليه فى مثال آخر اسم العَنعْنة (انظركتابنا « الثقافة ومستقبل الشباب »)، ونعنى بها الأخذ عن الآخرين بشكل أو بآخر. وتتمثل العنعنة الثقافية فى مجالين : الأول - الترجمة عن اللغات الأجنبية، والثانى - البحوث التى من طبيعتها الاستناد إلى مراجع أو مصادر مختلفة. وفى المقابل فإننا نجد أن الإبداع يكون المبدع فيه متحرراً من قيود النقل عن غيره. إنه كما قلنا يقوم بشق خط أو خطوط غير مسبوقة، لم يحاول أحد شقَّها من قبل. وخير مثال لذلك ما قام به فيثاغورس (القرن السادس قبل الميلاد) عندما عمد لأول مرة فى التاريخ إلى سَبّر غَور الهندسة النظرية. ولم نجد بين النساء من قام بمثل هذا . وحتى هيلين كيللر وهى بلا شك شخصية فذة، فإن ما قامت به كان

استمرارًا لما بدأه زوجها الذى قتل تحت عجلات عربة قبل أن يتم ما بدأه من بحوث رائدة فى مجال اليورانيوم. ولكن الواقع أن وراء كل عظيم امرأة، وأن إرادة التخطيط والتنفيذ لدى المرأة والرجل مكملان بعضهما لبعض.

إرادة صنع الجمال :

دأب الإنسان منذ قديم الزمان على صنع الجمال. وصنع الجمال هو الثمرة المتأتية عن التأثر بما يحيط بالإنسان من أشكال جميلة، سواء كانت تلك الأشكال متمثلة فى بعض الأشخاص، أم كانت متمثلة فى بعض الكائنات الحية الحيوانية أو النباتية، أم كانت متمثلة فى بعض المناظر الطبيعية كالجبال والبحار ونحوها.

على أن صنع الجمال لا يقَيَّض لجميع الناس، بل يقيض لصفوة منهم، هم أولئك الذين أوتوا بما يمكن أن نسميه « إرادة صنع الجمال ». وهذا النوع من الإرادة يتوازى مع نوع آخر من الإرادة نستطيع أن نسميه « إرادة التذوق الجمالى ». ولقد يعترض البعض على وجود هذا النوع الأخير من الإرادة، باعتبار أن الإحساس بالجمال، عملية سلبية لا دخل للمرء فى القيام بها. فهى فى نظرهم نتيجة تلقائية، أو حتى نتيجة عَرَضية تتأتى للمرء دون أن يبذل أى جهد فى الوقوع تحت

تأثيرها. فشأنها - كما يعتقدون - شأن الإصابة بالمرض نتيجة الوقوع تحت تأثير بعض الميكروبات أو الفيروسات التى تسبب المرض. ولكن الواقع غير هذا بالنسبة للأشخاص المتمتعين « بإرادة التذوق الجمالى ». فهناك نوعان من التأثر الجمالى : نوع يكون المرء بإزائه خاضعًا لتلقائية التأثير، ولا يكون هناك دخل للإرادة فى حدوث التأثير، ونوع آخر يكون المرء بإزائه قائمًا بتوظيف هذا النوع من الإرادة الذى أطلقنا عليه اسم « إرادة التذوق الجمالى ».

ونحن وإن كنا نعترف بوجود استعدادات أو مواهب خاصة عند أصحاب « إرادة التذوق الجمالى » وعند أصحاب « إرادة صنع الجمال »، فإننا نؤكد على أهمية الانخراط فى عمليات تدريبية تساعد تلك الاستعدادات أو المواهب على الخروج من حالة الكمون إلى حالة الواقع الموظَّف فى مواقف حياتية يضطلع بها المرء. ونحن نقصد لدى استخدامنا لكلمة « تدريبات » المرور فى التفاعلات الخبرية المتعلقة بالتذوق الجمالى من جهة، وبصنع الأشياء الجميلة من جهة أخرى. والمقصود بالتفاعلات الخبرية مرور الاستعداد الموروث فى سلسلة من التفاعلات المتراكبة بينها وبين المؤثرات البيئية والأدائية بحيث يتأتى عن كل تفاعل مركَّب جديد أكثر تراكبًا مما كان عليه الحال فى الخطوة السابقة، أو فى الحالة التفاعلية الخِبْرية السابقة.

والواقع أن هذه النظرة إلى الاستعداد أوالموهبة تختلف عن النظرة التقليدية الشائعة فى الأذهان والتى يعتقد الآخذون بها أن الموهبة أو الاستعداد إنما هو شىء مخبوء فى طيات الشخصية، وأن المؤثرات البيئية تساعد على إظهاره أو إخراجه من حيِّز الكمون إلى حيِّز الواقع دون أن يتأثر بالواقع الخارجى. وهذه النظرة أو التفسير هى النظرة ذاتها التى شاعت بإزاء الغرائز. فالقائلون بالغرائز اعتقدوا أن الغريزة لا تتأثر بالمؤثرات البيئية، هى تخرج من مكمنها إلى النِّطاق السلوكى للمرء بنصها وفصِّها كما يقولون.

ونحن نستطيع فى الواقع أن نتناول المفهوم التفاعلى الخاص بالخَبرات البشرية من زاويتين : الزاوية الأولى : هى الزاوية الفردية الخاصة بكل شخص، سواء كان ذكرًا أم أنثى. والزاوية الثانية : هى الزاوية الجمعية التى تتعلق بالجنسين، أعنى فئة الذكور من جهة، وفئة الإناث من جهة أخرى. فكما أن التفاعلات الخِبْرية الفردية التى تتم خلال حياة المرء تعمل على تشكيل شخصيته، كذا فإن التفاعلات الخِبْرية التى تتم خلال الأجيال المتعاقبة بإزاء فئتى الذكور والإناث من بنى الإنسان تعمل على تشكيل شخصية متميِّزة للرجل، وعلى تشكيل شخصية متميِّزة للمرأة. ومما لا شك فيه أن هذه النظرة الخِبْرية التفاعلية تتسم بالدينامية المتطورة. فهى لا

تقول بأن شخصية الرجل أو شخصية المرأة فى المستقبل سوف تكون على ما هى عليه الآن، كما أنها لا تقول إن شخصية الرجل أو شخصية المرأة حاليًا على ما كانت عليه فى الماضى. ولكن مما لا شك فيه أن التغيرات الحضارية المتلاحقة بل والمتسارعة، تعمل على إحداث تغيُّرات تطورية متلاحقة ومتسارعة أيضًا فى شخصيتى الرجل والمرأة.

وبالنسبة لمجالى تذوق الجمال وصنع الجمال أو إثرائه، فإننا نستطيع أن نقول إن المرأة بوجه عام أكثر حساسية من الرجل فى الإحساس بالجمال. ولعلنا نعزو هذا إلى ما وُهِبته من قدرة كبيرة على تمييز الفوارق بين الألوان والأصوات وأيضًا بين الملموسات والمشمومات والمتذوقات. وبتعبير آخر فإن المرأة خليقة بالتقييم التمييزى فيما بين المدركات الحسية المتباينة. بيد أن هناك عمليات سيكولوجية أخرى تعتمل فى هذا الموقف التقييمى إلى جانب التقييم التمييزى المترتب على ما جُبِلت عليه المرأة من قدرات حسية تتعلق بالحواس الخمس، لعل من أهمها تأجُّج العاطفة لديها وتغلُّب الفوران الوجدانى على التفكير العقلانى. أضف إلى هذا ما تتمتع به المرأة من قدرة حدسية، وهى القدرة الذهنية الوجدانية التى تمكِّنها من الوقوف على الحقائق والوقائع بغير استناد إلى شواهد أو دلائل أو مقومات. كل هذا وغيره يجعل المرأة أكثر قدرة من الرجل على الاحساس بالجمال.

بيد أن التذوق الجمالى لدى المرأة يتم فى الأغلب بطريقة سلبية، بمعنى أنها لا تقبل على التذوق الجمالى بالتدريب، كما أنها لا تُخْضع نفسها للأصول التى يجب مراعاتها فى عمليات التذوق الجمالى. وبتعبير آخر فإن المرأة فى الأغلب لا تتذرع « بإرادة التذوق الجمالى » كما قام الرجل بذلك عَبْر العصور المتعاقبة. ولكن هذا لا يعنى أن لدى جميع الرجال هذا النوع من الإرادة، أو أن جميع النساء محرومات من هذه الإرادة، بل يعنى أن نسبة هذه الإرادة لدى مجموع النساء أقل منها لدى مجموع الرجال.

وإذا كان هذا هو الحال بإزاء « إرادة التذوق الجمالى » عند النساء والرجال، فإنه ينسحب أيضًا بإزاء « إرادة صنع الجمال ». فالواقع أن هذا النوع من الإرادة أقوى بكثير لدى الرجال منه لدى النساء. ففى شتى المجالات الجمالية، فإنك تجد أن المساهمين فيها هم من الرجال وليسوا من النساء. فالتلحين الموسيقى والرسم والنحت وغير ذلك من مجالات إبداعية، تكاد تكون وقفًا على الرجال، فالنساء لم يكن لهن سهم فيها تقريبًا.

ولعلنا نفسر هذه الظاهرة، بأن المرأة تنحو بطبعها إلى الموجود الشائع، ولا تنحو إلى غير الموجود فتخلقه خلقًا، أو

تبتدعه ابتداعًا. فالمرأة تحب أن تسير فى الظل، أعنى فى الطريق الآمن الذى يسلكه الآخرون بينما هى تنبو عن أن تسلك فى طريق غير مأهول لا تجد فيه من يبدد وَحْشتها، ويَذُب عنها مخاوفها. ذلك أن المرأة هَيَّابة بطبعها، كما أن كلفها بالمألوف، وما اعتاد عليه الناس، معتمل فى أغوارها. ولعل أن يكون ذلك راجعًا إلى التربية القمعية التى خضعت لها المرأة عَبْر العصور المتعاقبة، مما أكسبها طابعًا خاصًا يتسم بالرضوخ لما يرين أمامها من أنماط سلوكية لا يكون عليها سوى الرضوخ لها، والأخذ بها، وعدم المخالفة عنها، بل والالتزام بها دون الخروج عن حدودها قيد أنملة.

وليس من شك فى أن صنع الجمال الإبداعى غير المسبوق بحاجة إلى إقدام وشجاعة. وهذه خصائص خُلقية وسيكلوجية لايؤهل لها إلا بعض الرجال. وإنك لتجد أن نسبة كبيرة من الرجال المقدامين الشجعان يوجهون أنظارهم ويصبُّون اهتمامهم إلى الواقع الخارجى، وإلى ما بين الناس والأشياء من علاقات ومواقف، بينما لا تجد إلا نسبة قليلة منهم ترتفع بأحاسيس الشجاعة والإقدام إلى المستوى الرمزى التجريدى، ناهيك عن أن نسبة قليلة من الرجال هم الذين يتمكنون من الفنون الأرادية، المطلوبة فى صناعة الجمال،فليس بكاف أن يتسامى الرجل بشجاعته وإقدامه إلى

المستوى التجريدى الرمزى، بل لا بد أن يكون قد تسلَّح بفنون التعبير أو الإفصاح عن شجاعته التجريدية الرمزية، فيصوغها فى قوالب فنية جمالية متميزة.

على أننا نذكِّر بأن ما يمتاز به الرجل، إنما هو نتيجة لما خضع له من سلسلة من التفاعلات الخبرية عَبْر أجيال كثيرة متعاقبة. ومعنى هذا أن الحصيلة الخِبْرية التى حصل عليها الرجال نتيجة لتلك التفاعلات الخبرية التى تأتت لفئتهم الذكرية، يمكن أن تتعرَّض للتغيُّر. والشىء نفسه ينسحب بإزاء الحصيلة الخِبْرية التى تأتت لفئة النساء، فمن الممكن إذن أن يأتى الوقت فى المستقبل الذى تجد فيه أن الحصيلة الخبرية المتأتية لفئة النساء قد فاقت الحصيلة المتأتية لفئة الرجال. وذلك فى ضوء ما تتمتع به المرأة فى الأزمنة الحديثة من تحرُّر وانطلاق، ومن حصول على حقوق كثيرة كانت محرومة منها طوال التاريخ الإنسانى السابق برُمَّته تقريبًا، وفى الغالبية العظمى من المجتمعات البشرية.

إذن فنحن لا نطلق أحكامًا مطلقة تتعلق بطبيعة الرجل أو بطبيعة المرأة، بل إننا نعزو تفوُّق الرجل على المرأة فيما يتعلق بإرادة التذوق الجمالى وإرادة التذوق الجمالى وإرادة صنع الجمال إلى عوامل معيَّنة لا هى عوامل وراثية بحتة. ولا هى عوامل بيئية بحتة. بل نعزو .. إلى عوامل تفاعلية فيما

بين المركبات الخبرية المتتالية وبين المؤثرات البيئية الجديدة، بيد أنه مما يجدر ذكره أيضًا أن المركَّبات الخِبْرية التى تتأتى عن التفاعلات الخبرية المتراكبة والمتتالية، تتفاعل أيضًا فى نطاقها الداخلى. ذلك أن علاقة المرء لا تنحصر فيما بين ذاته والواقع الخارجى المحيط به، بل تتعدى ذلك إلى تلك التفاعلات الخِبْرية التى تحدث ديناميًا فى نطاقه الداخلى. فلكأن الخبرات التى توجد بدخيلة المرء لا تظل فى حالة ركود وسكون، بل شأنها شأن الكائنات الحية التى تتزاوج فيما بينها لتنجب أجيالا جديدة دون أن تكون بحاجة إلى استيراد كائنات حية من الخارج، لكى تتفاعل أو تتزاوج معها. فإرادة التذوُّق الجمالى وإرادة الصنع الجمالى يشكلان قوامين أو جهازين نفسين لهما استقلالهما الداخلى الذاتى.

★★★

الفصل الرابع

الحرية وقوة الإرادة

القسوة والتدليل :

لا بد لنا من القيام بتقديم تعريف لكل من القسوة والتدليل، حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نكشف عن علاقة كل منهما بقوة الإرادة لدى الشخص الذى يستخدم القوة أو يستخدم التدليل فى تربيته. ولعلنا تبدأ بتقديم تعريف للقسوة فى نقاط على النحو التالى :

أولاً - فى المعجم الوسيط : « قسا قلبه » : اشتد وصلب، فذهبت منه الرحمة واللين والخشوع. وفى المنجد : « قسا » : صلُب وغلظ قلبه. فالقسوة ترتبط إذن بذاتية المرء بغض النظر عن النتائج السلوكية الخارجية التى تترتب على اتصافه بالخصائص المذكورة. وبتعبير آخر، فإن الشخص القاسى، يعبِّر عن قسوته فى جميع المواقف وبإزاء جميع الناس الذين يتعامل معهم بغير استثناء.

ثانياً - بيد أن هذا لا يحول دون القول بأن الشخص

القاسى يمكن أن يبدى أمارات سلوكية مباينة أو معارضة لما يعتمل بدخيلته من خصائص تمتلك عليه قلبه وعقله. فهو قد يبدى من المظاهر السلوكية غير ما يُبّطن من مشاعر وأحاسيس ونوايا.

ثالثاً - وعلى الرغم من إبداء الشخص القاسى لبعض المظاهر السلوكية التى يمكن أن تتصف بالرحمة، فإن تلك التصرفات الرحيمة تُعَد خروجًا عن القاعدة أو استثناء. أما جوهر سلوكه والخطوط العريضة فيه، فإنها تتسم بالقسوة والخُلُو من الرحمة.

رابعًا - والحكم على المرء بالقسوة أوالرحمة، لا يكون فى ضوء عدد المرات التى يبدى فيها القسوة أوالرحمة. فربما يكون الموقف الواحد كفيلاً بصدق الحكم بأن الشخص يتسم فى جوهر شخصيته بالقسوة برغم العديد من المواقف التى يبدى فيها الرحمة. ذلك أن الشخص القاسى يمكن أن يرتدى برقع الرحمة فى الكثير من المواقف بينما تكون حقيقته السيكولوجية هى الاتسام بالقسوة.

خامساً - للقسوة مظاهر سلوكية عديدة ومتنوعة. فلقد تتبدى فى الاعتداء بالقتل أو الضرب أوالاغتصاب، أو فى السادية، أو فى التعنّت مع الأضعف، أو حتى فى مخاطبة الآخرين أو فى نقد تصرفاتهم وكلامهم.

وبعد أن قمنا بتقديم تعريف للقسوة، علينا أن نقدِّم تعريفًا للتدليل على النحو التالى :

أولاً - التدليل هو ترجيح كفة رغبات من نتعامل معهم على حاجاتهم. والرغبة قد تتمشى وتتسجم مع الحاجة وقد تتعارض معها. فالطفل الذى يحب الحلوى ويرغب فى أكلها قد تكون حاجته الجسمية منسجمة مع رغبته هذه. ولكن قد يكون نَهَمه فى أكل الحلوى من عوامل انصرافه عن تناول باقى المواد الغذائية الضرورية لنموه. فتكون الحلوى فى هذه الحالة معارضة لحاجته. وكذا فإن الطفل إذا مرض ويكون بحاجة إلى تناول دواء مر المذاق فإن رغبته فى تناوله تكون منعدمة، ويكون رافضًا ونابيًا عنه. فالتدليل هو ترجيح كفَّة رغبات الطفل على كفَّة حاجاته.

ثانيًا - إن التدليل يعنى أيضًا ترك الطفل يَتَرسَّم أهدافه دون إقامة أى اعتبار لما يترسَّمه الكبار من حوله من أهداف خاصة به. فالمربى الذى يترك للطفل المسئول عن تربيته ترسُّم أهدافه بنفسه ولنفسه، ولا يتدخل هو فى رَسْم تلك الأهداف، إنما يكون مُتَّبعًا المنهج التدليلى فى تربيته.

ثالثًا - إن المربى الذى يقرر توقيع عقوبة ما على الطفل بسبب خطأ أو انحراف وقع فيه، ثم لا يكاد يبدأ فى توقيعها

حتى تجرفه الشفقة عليه فيأخذ فى حضنه وتقبيله وتعويضه عما آذى مشاعره بإغداق فيض من المكافآت والتعويضات عليه، إنما يكون قد تذرَّع بالمنهج التدليلى فى التربية.

وبعد أن قمنا بالتعريف بالقسوة ثم بالتدليل، فإن علينا أن نتناول كلاً من هذين المنهجين فى التربية لكى نكشف الغطاء عن أثر كل منهما فى قوة إرادة المرء الذى تُتَّبع القسوة أو الذى يُتَّبع معه التدليل. ولنبدأ بأثر منهج القسوة فى التربية بإزاء إرادة المرء على النحو التالى :

أولاً - إن الشخص الذى اتبعت معه وسائل التربية المتَّسمة بالقسوة، يكون موجَّهًا جل اهتمامه إلى المصادر الخارجية، ويكون خاضعًا فى حياته وفى تسيير دفة سلوكه فى ضوء الضغوط الخارجية التى تَصْدر إليه من الآخرين. فما يبديه من تصرفات إرادية، إنما يكون بمثابة سلسلة من ردود الأفعال. وبتعبير آخر فإن السلوك الإرادى يكون مستوردًا من الخارج، ولا يكون نابغًا من صميم الشخصية، أو لا يكون نابعًا من إرادة حرة واعية بمقومات الموقف.

ثانيًا - ويسير جنبًا لجنب مع هذا أن التصرفات الإرادية التى تَصْدر عن الشخص الذى خضع للتربية المتسمة بالقسوة، إنما تكون نابعة من عوامل لا شعورية مكبوتة فى

دخيلته. فعلى الرغم من أن تصرفات شخص كهذا تكون لها سمة الأفعال الإرادية، فإنها من جهة أخرى تكون بمثابة تعبيرات ملتوية عن المكبوتات اللاشعورية، أو تكون مصطبغة بالصبغات اللاشعورية المكبوته والمترسِّبة فى أعماق المرء منذ طفولته ومراهقته.

ثالثًا - إن إرادة الشخص الذى استخدمت القسوة فى تربيته، تَتَّسم فى الغالب بالتهور الإرادى أو بالتذبذب الإرادى. وفى بعض الحالات، فإن الشخص الذى اتبعت معه التربية المتسمة بالقسوة، يكون مصابًا بالشلل الإرادى. فهو لا يستطيع أن يضطلع بأى نشاط إرادى، ويكون بحاجة إلى من يفرض عليه إرادته ويوجهه فى كل خطوة من خطوات حياته.

رابعًا - إن الكثير من الأشخاص الذين اتبعت معهم التربية المتسمة بالقسوة، يبدون أيضًا القسوة الشديدة فى معاملة من يَصْغرونهم سنًا أو مقامًا أو مالاً أو نفوذًا أو علمًا. فالمكبوتات اللاشعورية لديهم تريد أن تجد لها منفذًا تخرج منه، فتجد ذلك المَنْفذ فى الأشخاص المتسمين بالضعف والخضوع لهم.

خامسًا - قد يتخذ الشخص الذى اتبعت معه التربية المُتَّسمة بالقسوة مواقف تتسم بالحنان الزائد. فبدلاً من اتخاذ

الموقف الانتقامى كما يبدو فى البند السابق، فإنه يعوِّض عما لقيه من قسوة بالحنان يَجْزله للواقعين تحت رعايته، فهو يعوِّض نفسه عن القسوة التى عانى منها بما يبديه من تدليل لمن يصغرونه، سواء فى السن أو المال أو المكانة الاجتماعية أو العلم أو غير ذلك من اعتبارات تدخل فى تقدير الصغر والكبر.

وبعد أن عرضنا لأثر القسوة فى قوة إرادة الشخص الذى تُستَخدم فى تنشئته، فإن علينا أن نعرض لأثر التدليل فى هذا الصدد على النحو التالى :

أولاً - إن الشخص الذى خضع للتدليل فى تربيته، يكون قد استهدف أهدافه من نطاقه الشخصى الضيِّق، ولا يكون قد استفاد من خبرات الكبار. ومن ثمَّ فإن قزامة الأهداف تكون مكتنفة حياته عَبْر مراحل النمو التى يمر بها. وأكثر من هذا فإن الأهداف التى يترسَّمها لا تعدو نطاق رغباته الشخصية دون ما بَصَر بحاجاته التى هى من طبيعة اجتماعية فى جوهرها. ومن ثمَّ فإنه من وجهة النظر الاجتماعية يكون شخصية فاشلة.

ثانياً - إن ما تربى عليه الشخص الذى اتُّبعت معه الوسائل التدليلية، يكون شخصية طريَّة لا تستطيع مجابهة

صعاب الحياة أو تحدياتها. فهو يقع صريع أى صعوبة تصادفه. فاليأس يستولى عليه بسهولة لأنه لم يَتدَرب على الإخشوشان وتحمُّل العقوبات فى طفولته. فإذا ما ألحق مثل هذا الشخص بإحدى الوظائف ثم أخطأ فُوقِّعت عليه عقوبة بسيطة، حتى ولو كانت مجرد لفت نظر، فإنه يجد أن الدنيا قد ضاقت أمامه، فيجد أن لا مناص من الاستقالة، أو حتى لقد يحاول الانتحار. فشخص كهذا لا يكون صُلّب العود، ولا يصلح للحياة فى مجتمع به الحلو والمر، وبه المثوبة والعقوبة.

ثالثًا - إن الشخص الذى تربى على التدليل يجد نفسه متعطشًا لعطف الآخرين عليه، وإلى معاملتهم له بالكلام المنمق والكَلَف الشديد به وبشئونه. وبذا فإنه يكون فريسة سهلة للمنافقين ومستغلى ضعاف النفوس. فإذا كان وارثًا لثروة كبيرة، فإن المتقربين منه الذين يُبدون له الحب، بمكن أن يستلبوا منه كل ماله، ويتركوه مُفْلسًا أو شبه مفلس. وبتعبير آخر فإنهم يكونون قد استطاعوا أن يأسروه بحبهم الزائف، وأن يجردوه من إرادته.

رابعًا - والشخص الذى تربى على التدليل، لا يكون قابلا لاتخاذ الموقف الوسط بين ما يرغب فيه وبين ما يرغب فيه غيره. إنه لا يعرف إلا ما يسيطر على عقله، ولا يريد إلا

ما تفرضه عليه رغباته. والواقع أن الحياة فى حاجة إلى الكثير من المرونة. فليس فى الحياة صواب وخطأ فحسب، بل تتضمن أيضًا المناسب وغير المناسب، وأيضًا الممكن والمتعذر والصعب والمستحيل. والشخص المتسم بالمرونة فى واقع حياته، هو الذى يستطيع أن يتنازل عن بعض ما يريده الآخرون حتى يحظى بأكبر قدر ممكن من المتاح. إنه الشخص الذى لا يؤمن بمبدأ الكل أو لا شىء، بل هو الشخص الذى يؤمن بمبدأ المستطاع بقدر الإمكان. أما صاحبنا الذى تربَّى على التدليل، فإنه لا يعرف ذلك ولا يستطيعه، بل يتشبث بما تمليه عليه رغباته دون بصر بالواقع والممكن. ومن ثمَّ فإنه يَفْقد صداقة الآخرين، ويفشل فى معاملاته، ولا يستطيع أن يَشُق طريقه فى الحياة بنجاح.

خامسًا - والشخص المدلل بعد أن يكبر، لا يستطيع أن يكون زوجًا صالحًا (أو زوجة صالحة)، وذلك لأنه يريد من شريك الحياة أن يُلبِّى له كل رغباته مهما كانت. وهذا مستحيل فى الواقع. ومن ثمَّ فإن النزاع يَدُب بين الزوجين، ويكون القَدَر المحتم هو الفراق. وحتى مع تكرار الزيجات، فإن الحال لا يتغير ويكون الفشل هو النتيجة الحتمية دائمًا.

الإهمال والرعاية الزائدة :

على الرغم من أن لفظ الإهمال والرعاية الزائدة يبدوان واضحين بذاتهما، وفى غير ما حاجة إلى تحديد وتعريف، فإننا نجد أنهما يُخْفيان خلفهما بعض المعانى والأنحاء التى تحتاج إلى سَبْر الغَوْر والكشف عن الفحوى. ولعلنا نبدأ بإلقاء الضوء على معنى الإهمال فى تربية الطفل على النحو التالى :

أولاً - المعنى البيولوجى : إن أول زاوية يجب أن تؤخذ فى الاعتبار بإزاء رعاية الطفل، هى الزاوية المتعلقة بوجوده ككائن حى. فأى تقصير فى رعاية جسمه، وأيضًا أى خطأ فى القيام بتلك الرعاية يُعَد إهمالاً فى تربيته. وأهم جوانب الرعاية الجسمية التى يجب أن تُكْفل للطفل مَده بالمواد الغذائية، وإعطاؤه العقاقير اللازمة لوقايته من الإصابة بالأمراض والعلاج منها، وكسوته بالملابس المناسبة لحالته الجسمية وللطقس السائد بالمكان، وتوفير السرير المريح الذى ينام عليه أو يرتاح به، وتهيئة المكان الذى يتحرك فيه بالمشى والجرى والقفز وممارسة الألعاب الرياضية، واستخدام الماء والصابون لاستحمامه لضمان نظافة جسمه باستمرار، وتعويده على مواعيد الاستحمام وقضاء الحاجة، وتجديد

الهواء النقى فى المنزل والمدرسة. كل هذا وغيره إذا لم يتوافر بالشكل المناسب للطفل والمراهق والشاب، فإن اصبع الاتهام يجب أن توجَّه إذن إلى الكبار المسؤولين عن التربية بالإهمال فيما كان يجب أن يتذَّرعوا به من رعاية بيولوجية تتعلق بجسم الطفل أو المراهق أو الشاب.

ثانياً - المعنى السيكولوجى : إن الإنسان بحاجة إلى أن يتلقى الحب من الآخرين، وأن يحبهم أيضًا. ولكن الواقع أن كل حب لابد أن يكون مَصحُوبًا ببعض الكراهية. وحتى إذا نحن اعتبرنا أن الكراهية هى مجرد امتناع وجود الحب، فإننا نستطيع أن نقول إن المرء لا يستطيع أن يتلقى الحب من جميع الناس المحيطين به، كما أنه لا يستطيع أن يُقَدِّم الحب إلى جميع الناس الذين يعرفهم. فعدم تلقى الحب، وأيضًا عدم تقديم الحب، إنما هو كراهية بهذا المعنى. والواقع أن إحساس الطفل بأن والديه أو الإخوة أو الأخوات أو أيًا من الأشخاص المتعاملين معه لا يقدمون له القدر الكافى من الحب، فإن هذا الإحساس، يكون فى الوقت نفسه إحساسًا بأن الآخرين يبغضونه. ومادام الطفل يحس بالكراهية تصوَّب إليه من جانب الآخرين الذين يتعامل معهم، وذلك بعدم تقديمهم الجرعة الكافية من حبهم له. فإنه بالتالى لا يستطيع أن يقدِّم إليهم الحب، أو بتعبير آخر فإنه يحس تجاههم بالكراهية.

فنقطة البداية فى تبادل العواطف ترتكز لدى الآخرين المحيطين بالطفل. فيما يقدِّمه الطفل من عاطفة حب أو من عاطفة كراهية - بهذا المعنى السلبى للكراهية - إنما يكون بمثابة رد فعل على ما يبعثه الآخرون إليه من عواطف الحب، فإنهم يكونون بالتالى قد أهملوه بهذا المعنى السيكولوجى.

ثالثًا - المعنى الاجتماعى : إن الإنسان فى أى سن بحاجة إلى الآخرين يقيم العلاقات معهم، سواء كانت علاقات حب أو كراهية، أم كانت علاقات تعاون أو تنافس، أم كانت علاقات عطاء أو أخذ، علاقات تعلُّم أو تعليم، أم كانت علاقات عمل أو لعب، أم كانت علاقات أخرى غير التى ذكرناها. والطفل الذى لا يَكْفل له القائمون بتربيته ما هو بحاجة إليه من علاقات اجتماعية بالآخرين ممن فى سنه أو ممن يصغرونه سنًا أو ممن يكبرون عنه، فإنهم يكونون بالتالى قد أهملوه.

رابعًا - المعنى الاقتصادى : يرتبط هذا المعنى الاقتصادى بالمعنى الاجتماعى. فالطفل فى حاجة إلى من يقوم بإعالته والإنفاق عليه وسد حاجاته، وإشباع أكبر جانب من رغباته. والواقع أن الطفل الذى يحس بالحرمان برغم مقدرة أسرته اقتصاديًا، أو الطفل الذى نشأ فى أسرة فقيرة ويكون

حرمانه نتيجة ضآلة دخل أسرته، إنما يحس فى الوقت نفسه بأنه قد ابتلى بالإهمال.

خامساً - المعنى الثقافى : إن المعنى الذى يَرِد إلى الذهن عادة لدى استخدام لفظ «ثقافة» هو المعنى المعرفى. بيد أن الواقع أن الثقافة تشتمل على خمسة معان أساسية. فبالإضافة إلى هذا المعنى المعرفى. فإن هناك المعنى المهارى المتعلق بالمهارات الحركية والمهارات الاجتماعية. وتتضمن الثقافة أيضًا القيم الروحية والخلقية والجمالية. ثم هناك الجانب التعبيرى أو الإفصاحى. والواقع أن هذا الجانب مباين للجانب المعرفى لأنه يتعلق بالتصدير أو التعبير بعامة، سواء كان ذلك التصدير أو التعبير متعلقًا بالمعرفة أم بالعواطف أم بالأداء. ثم هناك أخيرًا الجانب التخطيطى المستقبلى. ذلك أن الإنسان ليس سجين الحاضر وذكريات الماضى فحسب، بل إنه متشوِّف للمستقبل أيضًا، فيترسَّمه ويُشَكل لنفسه صورًا ذهنية وأهدافًا يريد تحقيقها. فإذا كان المسئولون عن شئون الطفل غير قائمين بواجبهم فى مدِّه بجميع تلك المقومات الثقافية بالقدر المناسب لإمكاناته واستعداداته، فإنهم يكونون مهملين له، ومقصِّرين فى حقه.

وبعد أن قدمنا هذا التعريف بمعنى الإهمال فى تربية

الطفل، فإن علينا أن نقوم بتعريف معنى الرعاية الزائدة على النحو التالى :

أولاً - تعنى الرعاية الزائدة، تقديم قدر أكبر من حاجة الطفل إليه، سواء من الناحية البيولوجية، أم من الناحية السيكولوجية، أم من الناحية الاجتماعية، أم من الناحية الاقتصادية، أم من الناحية الثقافية. فالوالدان الكَلِفان بالطفل ويبالغان فى الحفاظ عليه، وذلك بتقديم كميات كبيرة من الطعام يحشون بها معدته حشواً، أو اللذان يُغْدقان عليه من العطف واللهفة عليه، أو اللذان لا يتركانه لقضاء بعض الوقت وحده دون تدخل من جانبهما، أو اللذان يقدِّمان إليه من المال أكثر من حاجته، أو اللذان يرهقانه بالمعلومات أو بغيرها من مقومات ثقافية، إنما يكونان قد بالغا فى رعايتهما له رعاية زائدة عن المطلوب.

ثانيًا - إن الرعاية الزائدة تعنى أيضًا إبعاد الطفل عن واقع الحياة. فثمة من الآباء والأمهات من يعزلون الطفل عن البيئة المحيطة به حتى لا يصاب بأى مرض، كما يعزلونه عن الأطفال الآخرين، سواء كانوا فى سنه أو أصغر أو أكبر منه خوفًا على أخلاقه، ويقومون بوضع الطفل تحت رقابتهما بصفة مستمرة، فيتأتى عن ذلك حرمانه من اكتشاف مواهبه

واستعداداته،ويظل غريبًا عن المجتمع سواء فى حاضره أم فى مراحل عمره التالية.

ثالثًا - إن الرعاية الزائدة من جانب الوالدين والمربين بعامة، تتمثل فى التدقيق الشديد والصارم فى محاسبة الطفل على أى خطأ يبدر منه، سواء كان الخطأ متعلقًا بالأخلاق، أم كان متعلقًا بالامتحانات المدرسية. فهم يرسمون فى ذهنهم صورة مثالية للطفل لا بد أن تتحقق بشتى الوسائل وبجميع الطرق الممكنة. فإذا ما خيَّب الطفل أملهم ولم يحقق لهم الصورة الخيالية التى رسموها له فى أذهانهم، فإنهم يعتبرون أنهم قد فشلوا فى تربيته، بينما الواقع أنهم قد انحرفوا عن الجادة برعايتهم الزائدة له

رابعًا - تتمثل الرعاية الزائدة أيضًا فى تقديم المكافآت للطفل من جهة، والمبالغة أيضًا فى توقيع العقوبات عليه من جهة أخرى. فثمة من المربين من يركزون انتباههم على من يقومون بتربيتهم، فيبالغون فى تقييم سلوكهم، وما يتبع ذلك التقييم من مكافآت وعقوبات.

خامسًا - أخيرًا فإن الرعاية الزائدة تتمثل فى التخطيط لمستقبل الطفل بالتفصيل، حتى لكأن ذلك المستقبل فى قبضتهم وتحت إمرتهم. صحيح أن لترسُّم المستقبل أهميته.

ولكن هناك فرقًا جوهريًا بين النظر إلى المستقبل فى خطوطه العريضة، وبين ترسُّمه بتفصيلاته الدقيقة. فالآباء والأمهات الذين يبالغون فى رعاية أولادهم، يترسَّمون لهم المستقبل القريب والبعيد بتفصيلاته وحواشيه، حتى لكأنهم قد قاموا بصب أولادهم فى قالب من إعدادهم. وهل هناك سجن أشد وحشة من سجن من هذا القبيل ؟

وبعد أن قمنا بالتعريف بالرعاية الزائدة، وقبل ذلك قمنا بالتعريف بالإهمال فى الرعاية، يبقى علينا أن نلقى بالضوء على أثر هذين الموقفين التربويين فى قوة إرادة الطفل والمراهق والشاب. ولعلنا نلخص هذا الأثر على النحو التالى :

أولاً - إن إرادة الناشئ تقوى وتترعرع إذا ما توافر له جو أسرى يتسم بالتوسط فيما بين الإهمال والرعاية الزائدة. فالطفل والمراهق والشاب يجب أن يتمتعوا بنطاق معين من الحرية، ولكن ذلك النطاق يجب أن يكون على مقاس المرحلة النمائية التى ينخرطون فيها، وعلى مقاس ما يمتاز به كل واحد منهم من خصائص شخصية فردية. فكما أن المرء فى حاجة إلى الحرية، فإنه بحاجة من جهة أخرى إلى ما يُلَجِمه ويُوقفه عند حَدِّه ويضبط سلوكه. فالضغط الخارجى وقمع الآخرين لنزوات وطموحات الناشئ، على القدر نفسه من

الأهمية التى تناط بما يجب كفالته من حرية له.

ثانيا - إن الصعاب والعقبات والتحديات التى تعترض طريق الطفل والمراهق والشاب ضرورية لتفتيق إرادته وتقويتها. ولكن تلك الصعاب والعقبات والتحديات إذا ما كانت أشد من قدرة المرء على مغالبتها وتحديها، فإنها تكون إذن معول هدم لإرادته، أو عائقًا أمام تفتيقها وتقويتها.

ثالثًا - كما أن الحب الوارد إلى المرء، والصادر عنه إلى الآخرين، يعتبر من عوامل تقوية الإرادة، فإن الكراهية أيضًا التى توجه إلى المرء، أو التى يحس بها تجاه الآخرين، تعتبر من عوامل تقوية الإرادة. فبالحب إرسالاً واستقبالاً تَقْوى إرادة التعاون مع الآخرين. وبالكراهية إرسالاً واستقبالاً تقوى إرادة التنافس والمغالبة.

رابعًا - إن إرادة الطفل والمراهق والشاب تنبع من مصدرين لا غنى عن واحد منهما والاكتفاء بالآخر : الأول - العلاقات بالواقع الاجتماعى الخارجى، والثانى - ذاتية المرء. فإذا ما حُرِم المرء من الواقع الاجتماعى، أو من الاعتكاف والانكفاء على نفسه لبعض الوقت، فإنه لا يستطيع أن يصير صاحب إرادة قوية.

خامسًا - إن توفير فرص النشاط المتباينة حول الطفل،

يساعده على ترعرع إرادته. ولكن يجب أن تتاح الفرصة أمامه لأن يوفر لنفسه وبنفسه جانبًا من تلك الفرص. فيجب عدم المبالغة فى توفير تلك الفرص للطفل، كما يجب عدم حرمانه منها. والخلاصة أن التربية الخليقة بتقوية إرادة الناشئة هى التربية التى تتحرى التوسط بين الإهمال والرعاية الزائدة.

دور الأتراب فى الإرادة :

الأتراب هم فئة الأشخاص الواقعين فى نفس السن. ولكن من الممكن أن نتوسّع بهذا المعنى تجاوزًا فنجعل الأتراب من يقعون فى نفس المستوى من الخبرة فى ناحية ما من النواحى العديدة. ويمكن أيضًا أن نتوسع بمعنى الأتراب فنطلق هذا اللفظ على جميع الأشخاص المتساوين فى المقام أو فى الدخل وفى غير ذلك من حالات. وحتى إذا نحن اقتصرنا فى إطلاق هذا اللفظ على المتساوين فى السن كما ورد بالمعجم الوسيط، فإننا نجد أن هناك أسنانًا متباينة، أو أنواعًا متباينة من الأسنان. فثمة السن كما تشير إليه شهادة الميلاد من جهة، وهناك ما يعرف بالعمر العقلى أو السن العقلية من جهة ثانية. وإذا نحن تناولنا جميع جوانب الشخصية، فإننا سوف نجد أسنانًا أخرى كالعمر الوجدانى، أعنى مستوى النضج الوجدانى الذى بلغه المرء من جهة ثالثة، والعمر

الاجتماعى من جهة رابعة، والعمر الكلامى أو اللغوى من جهة خامسة.

ولعنا نستطيع أن نتخيل مجموعة من الأطفال متقاربين - وليسوا متطابقين - فيما يتعلق بهذه الأنواع المتباينة من الأعمار أوالأسنان، ونتغاضى فى الوقت نفسه عما بينهم من فوارق. فنجد أن هناك مجموعة من الخصائص التى تتسم بها هذه المجموعة لعلنا نقدمها على النحو التالى :

أولاً - تتسم هذه المجموعة من الأطفال بسهولة النقل الخبرى بين أفرادها. ذلك أن هناك انسجامًا عقليًا فيما بين أفرادها مما يجعل من السهولة بمكان انتقال الخبرة من فرد أو أكثر من أفراد المجموعة إلى باقى الأفراد الواقعين فى إطارها.

ثانيًا - بالنسبة للتيار الوجدانى فى المجموعة، فإنه يكون ساريًا فيما بين أفرادها. فثمة ما يشبه التناغم الوجدانى، أى سريان الحالة الوجدانية الواحدة من فرد إلى آخر فيها أو بين أفرادها جميعًا دفعة واحدة. فجميع أفراد المجموعة يحسون عندئذ بنفس الأحاسيس أو المشاعر الوجدانية.

ثالثًا - من حيث النزوع او إرادة الفعل، فإن أفراد

المجموعة التى تتشكل من الأتراب، يشكِّلون ما يشبه الجسم الواحد الذى يتجه نفس الاتجاه، ويُقبل على تنفيذ ما يعتزم تنفيذه كما لو أن جميع أفراد المجموعة عبارة عن شخص واحد له إرادة عمل واحدة. ومن الطبيعى أن إرادة التنفيذ تستمد قوتها وزخمها من الانسجام العقلى والوجدانى الذى تتسم به المجموعة.

رابعًا - تتعلق مجمرعة الأتراب من الأطفال والمراهقين أو الشباب بقائد أو مَثل أعلى يقودها ويؤثِّر فيها إلى أبعد مدى يكون عليه التأثير. فهى تستمد أفكارها وأهدافها الجديدة من ذلك القائد أوالمثل الأعلى، وتخضع لمشيئته وما يحدده لها من أهداف، وتقوم بتنفيذ ما يقوم بوضعة من خطط بكل حَرفية ودقة، وبغير خروج عن الإطار العملى الذى يحدده لها.

خامسًا - تتأبى مجمنوعة الأتراب على التفسُّخ والانقسام. فإذا ما خرج أحد أفرادها عن الصف لسبب أو آخر فإن ذلك قد يزلزل وحدتها، ويعمل على تفكك أوصالها، وبخاصة إذا كان الفرد الذى يخرج عن نطاقها قد حظى بوضع مرموق فيها، وقد التفت حوله قلوب باقى المجموعة.

ولعنا بعد هذا نقوم بإلقاء الضوء على أثر مجموعة

الأتراب فى قوة إرادة كل واحد منها. إننا نستطع تحديد هذا الأثر على النحو التالى :

أولاً - إن ما يسمى بالعقل الجمعى الذى قال به يونج تلميذ فرويد، يتمثل أكثر ما يتمثل فى هذه المجموعة التى تضم الأتراب. ذلك أنه كلما كانت المجموعة أكثر تجانسًا، وتقارب أفرادها فى الجوانب المتباينة من شخصياتهم، كان ما يسمى بالعقل الجمعى أكثر قوة وترابطًا وإقدامًا على العمل دون ما تضارب أو تذبذب أو تقاعس.

ثانياً - إن الواحد من مجموعة الأتراب يستمد قوة إرادة هائلة من المجموعة التى يصير عضوًا بها، وجزءًا لا يتجزأ منها. ومن هنا فإنك تجد الواحد من هذه المجموعة التِّربية - إذا صح التعبير - يضطلع ببعض المهام التى لا يستطيع أن يضطلع بها وهو وحده بعيدًا عن مجموعة الأتراب.

ثالثاً - إن الطفل أو المراهق أو الشاب المندمج فى مجموغة الأتراب، يكون شديد القابلية للإيحاء والتقليد. فإذا ما ابتليت مجموعة الأتراب بقيادة شريرة أو بقيادة إجرامية، فيكون من السهل قيادها إلى مهاوى الرذيلة دون أن يكون لأفرادها القدرة على النقد أو مقاومة الإيحاءات، أو مقاومة السلوك المنحرف عن الجادة.

رابعًا - كثيرًا ما يحدث أن يكتشف المرء مواهبه واستعداداته وهو فى نطاق مجموعة الأتراب. فكم من شخصية عبقرية بدأت فى اكتشاف كنوز مواهبها المفطورة بداخلها بينما كانت فى نطاق مجموعة من الأتراب. صحيح أن المرء يكون ذائبًا ومندمجًا فى جسم المجموعة ولكن هذا لا يحول دون الإحساس بقوة مواهبه الفردية التى اشتعل أوارها وتفتقت أنحاؤها وهو فى إطار المجموعة. فبعد أن ينعكف المرء على نفسه، وينسلخ من المجموعة، فإنه يبدأ فى استثمار مواهبه واكتساب الخبرات التى تبرزها وتجلوها، وتخرج بها من حيز الكمون إلى رحابة الواقع.

خامسًا - إن المرء وهو فى إطار مجموعة الأتراب يكون مفعمًا بإرادة الهدم كما يكون مفعمًا بإرادة البناء. فإذا ما اتجهت مجموعة الأتراب إلى البناء، فإن العضو فيها يبذل جهدًا عظيمًا فى المشاركة فى البناء. وإذا كانت المجموعة متجهة إلى الهدم والتخريب فإن العضو فيها يكون مستعدًا للمشاركة فى الهدم والتخريب دون بصر بالعواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على سلوكه الهدمى التخريبى. والواقع أن عصابات الإجرام تستغل هذه الخصيصة السيكلوجية التى تتصف بها مجموعات الأتراب فتضرب على أوتارها النفسية،

وتقودها إلى مهاوى الجريمة والانحراف، سواء بالسطو على الأفراد أو المتاجر أم بارتكاب جرائم القتل وإشعال الحرائق وإلقاء الرعب فى قلوب الناس الآمنين.

وعلينا بعد هذا أن نقوم بمدارسة مسئولية التربية بإزاء مجموعات الأتراب، فنجد أن هذه المسئولية يمكن أن تتحدد فيما يلى :

أولاً - إن المربى الذى يفهم جيدًا سيكولوجية مجموعة الأتراب، ويكون صاحب شخصية جذابة وذو قدرة عالية على إقامة علاقات مكينة مع من يقوم بتربيتهم، يستطيع أن يجعل من شخصيته مثلاً أعلى تلتف حوله قلوب مجموعة الأتراب فيقودها بيسر وسهولة وفاعلية. وبذا فإنه يحقق الأهداف التربوية التى يترسمها دون مشقة أو إحساس بوجود عقبات فى سبيل ذلك.

ثانيًا - بالنسبة للخبرات الجماعية مثل الرقص والغناء ونحوهما، فإن من السهولة بمكان حمل الأفراد الذين يشكِّلون مجموعة الأتراب على اكتساب تلك الخبرات، بينما يكون من الصعوبة بمكان كَسْبها لكل فرد منهم على حدة.

ثالثًا - إن من السهولة بمكان تدريب مجموعة الأتراب على الالتزام بالنظام الذى يوضع لها. ذلك أن مجموعة

الأتراب تقفو إلى التلبُّس بالسلوك النمطى الذى على أساسه ينبنى النظام فى الأداء. وواضح أنه إذا ما خرج أى فرد من أفراد مجموعة الأتراب على النظام المجعول لها، فإنه يقابل من باقى أفراد المجموعة بالمقاومة وأحيانًا بالسخرية والاستهزاء. وبذا يكون من السهل قيادة مجموعة الأتراب نحو التلبُّس بالنظام والالتزام بدقائقه وتفصيلاته.

رابعًا - إن المربى الحصيف يستطيع أن يقوم بتقسيم مجموعة الأتراب الكبيرة إلى مجموعات تِرْبية صغيرة، وأن يحمل كل مجموعة من المجموعات التِّرْبية الفرعية على التعاون فيما بينها من جهة، وعلى التنافس مع المجموعات التِّربية الأخرى من جهة أخرى.

خامسًا - والمربى الحصيف يستطيع أيضًا أن يقوم باكتشاف الشخصيات التى لديها استعداد للزعامة والقيادة. فيسلِّمها زمام المسئولية والزعامة أو القيادة، وأن يحاول باستمرار تحميل أفراد كل مجموعة تِرْبية مسئولية جديدة حتى تنغرس فى أفراد تلك المجموعات القدرة على تحمل المسئوليات المتباينة.

وبالنسبة لمسئولية المربى بإزاء تقوية إرادة أفراد

المجموعة التِّرْبية، فإننا نستطيع أن نحدد الخطوط الرئيسية فى هذه المسئولية على النحو التالى :

أولاً – يقوم المربى الحصيف بوضع بعض العراقيل أمام مجموعة الأتراب، ويكون قد تحرَّى فى ذلك أن تكون الصعاب أو العراقيل بحيث يتسنى لأفرادها بعد بذل الجهد المعقول تذليلها والتغلب عليها وقهرها. إنه بهذا يكون قد وفر الفرصة أمام أفراد المجموعة التِّرْبية لتقوية إرادة أفرادها.

ثانياً – يهتم المربى الحصيف باكتشاف المواهب والاستعدادات المفطورة فى قوام أفراد مجموعة الأتراب، فيعمد إلى إسناد المسئوليات التنفيذية العملية إلى كل فرد حتى يقوِّى إرادة التنفيذ لديه. ذلك أن المواهب والاستعدادات تتباين من شخص لآخر. ومن ثمَّ فمن الضرورى مراعاة مناسبة المسئوليات التى تُوكل إلى الأفراد بالمجموعة التِّرْبية مع استعداد كل منهم.

ثالثاً – لا شك أن عمليات التقييم التى يقوم بها المربى لما تم إنجازه من جانب كل فرد من أفراد مجموعة الأتراب تعتبر أداة فعالة فى استنهاض قوى واستعدادات ومواهب كل واحد منهم لإبراز كل ما لديه من إمكانات واستعدادات مطمورة بدخيلته.

رابعًا - تلعب المكافآت والعقوبات دورًا خطيرًا فى تقوية الإرادة. والواقع أن بعض المربين ينحون إلى التقليل من أهمية العقوبات، ولكن الواقع أن تعود الناشئة على تقبُّل العقوبة مثلما يتقبلون المكافأة، يجعل منهم شخصيات صُلبة العود. ولكننا نميل إلى استخدام العقوبات الأدبية ومحاشاة العقوبات البدنية لما لها من أضرار صحية ونفسية على السواء. المهم أن يستخدم المربى المكافأة والعقوبة بحصافة حتى يتسنى له تقوية إرادة أفراد مجموعة الأتراب، وحملهم على شق طريقهم فى الحياة بشجاعة، بحيث يصيرون متقبِّلين لما يمكن أن يحظوا به من مثوبة ، أو من عقوبة توقَّع عليهم بسبب ما ترددوا فيه من أخطاء.

دور الصغار فى تربية الإرادة :

هناك اعتقاد سائد بأن التربية لا تؤدَّى إلا من جانب الكبار، فتوجَّه إلى من يصغرونهم سنًا. والواقع أن التربية تتأتى عن أى تأثير يصدر إلى المرء من الخارج حتى ولو لم يكن من الناس. فالطعام والكساء والماء والهواء تربى جسم الإنسان. وحتى التربية التى تَصْدر عن الآخرين، قد تكون مقصودة وقد تكون عفوية وتلقائية. والتربية قد تكون مفيدة وجيدة وقد تكون ضارة ورديئة. وكما أن مجتمع الأتراب يؤثِّر

تربويًا فى أفراد ذلك المجتمع، كذا فإن مجتمع الكبار يؤثّر فيمن يصغرونهم سِنا، وأيضًا فإن أفراد مجتمع الصغار يؤثرون تربويًا فيمن يكبرون عنهم سنًا.

ومما لا شك فيه أن الأم تكتسب مقوّمات تربوية كثيرة وعميقة منذ اللحظات الأولى التى يتم فيها الحمل. وتتزايد المؤثرات التربوية فاعلية فيها بعد أن تضع طفلها وتبدأ فى تحمل مسئولية تنشئته. إنها مهما كانت قد قرأت عن الأمومة واكتسبت تصورات ذهنية عن مسئولية الأم تجاه طفلها، فإنها بعد الممارسة الفعلية تأخذ فى اكتساب نوع جديد من الخبرات هى فى صميمها خبرات تربوية مؤثّرة فى قوام شخصيتها.

والأب بدوره يكتسب مقومات تربوية جديدة لدى إنجابه طفلاً لأول مرة. وحتى إذا هو أنجب أطفالاً آخرين، فإن كل طفل جديد يُنجبه يؤثّر فيه بطريقة معيّنة. ناهيك عن الإحساس بالمسئولية تجاه الزوجة والأولاد وهو إحساس يعتبر ثمرة تربوية يكون ذلك الرجل قد اكتسبها من الواقع الاجتماعى الأسرى الذى يوجد به. وهذه الثمرة هى جماع المؤثرات التربوية التى اكتسبها من الأحداث الأسرية التى مرت فى حياته كزوج وكأب. والواقع أن من اشتغل بالتدريس

يقـدِّر تقـديرًا بالغًا أثـر التـلامـيـذ الذين يقـوم بتـعليـمـهـم فى تشكيل شخصيتـه، وفى كسبـه لمقومات تربوية كثيرة ومتنوعة لم يكن له سابق عهد بها. فالموقف التعليمى ليس موقف المعلم من تلاميذه فحسب، بل إنه أيضًا موقف التلاميذ من معلمهم. فكمـا أن المعلم يصـدِّر مـؤثِّرات تربـوية إلى تلامـيـذه، كـذا فـإن التـلاميـذ يصـدِّرون مـؤثرات تربوية إلى مـعلمـهم. ويخطئ من يعتقـد أن صلة المدرس بتـلاميـذه هى صلة معرفيـة فحسب. فواقـع الأمـر أن صلة المدرس بتـلامـيـذه صلة شـاملة لكل قوام الشـخصيـة، سـواء شـخصية كل تلميذ، أم شـخصـية مجموع التلاميذ، إذ إن لكل مجموعة من التـلاميذ شخصية تميز ذلك المجموع. ومن جهـة أخرى فإن شخصية المعلم تقدَّم برمتها إلى التلاميذ وليس الكلام الذى يفوه به فحسب. فالموقف التعليمى مـوقف مـتكامل، والتـأثيـر الذى يتلقـاه المدرس من تلامـيـذه لا يقـتصـر على مـا يدور بعقله من أفكار أو على مـا يفـوه به من كلام أو ما يصـدر عنه من حركات، بل إن التلاميذ يؤثِّرون فى القـوام النفسى للمـدرس برمتـه، فـالكثـيـر من المدرسين صـاروا أكثـر ثقة فى أنفسهم بعد أن امتهنوا بمهنة التعليم، بينما فقد بعـضـهم الثـقـة بـالنفس، بل إننـا لا نبـالـغ إذا قلنـا إن المؤثِّرات التـربوية الرديئة التى اكتـسبـهـا البـعض منهم قد انحـرفت بهم من السـوية إلى الشـذوذ، ومن الصـحـة النفـسـيـة إلى المرض النفسى.

فكما أن كل تلميذ يُقَيِّم نفسه ويُقَدِّرها فى ضوء موقف زملائه منه، وفى ضوء موقف مدرّسه منه، كذا فإن المدرس يُقَيِّم شخصيته ويُقَدِّرها فى ضوء موقف تلاميذه منه، بل وفى ضوء ما يوجهونه إليه من نظرات، وما يصدر عنهم من ابتسامات وتعليقات. فثمة إذن رسائل نفسية يتبادلها التلاميذ والمدرس، قد تكون رسائل مبهجة، كما أنها قد تكون رسائل مُكَدِّرة. وكما أن التلاميذ يُحِسون بما يحمله لهم المدرس من حب وإعزاز، أو من كراهية ونفور، كذا فإن المدرس يحس بنبضات قلوب تلاميذه، وما يحملون له فى قلوبهم من مشاعر وجدانية. ويتأتى عن كل موقف تعليمى حصيلة وجدانية تترسّب فى قوام التلاميذ تجاه معلمهم، وفى قلب المعلم تجاه تلاميذه.

وإذا كان هذا هو حال المدرس وما يتلقاه من مؤثرات تربوية منهم، فإنه هو أيضًا حال الرئيس فى أى موقف من مواقع العمل بإزاء مرءوسيه. فالرئيس يكتسب مؤثرات تربوية من مرءوسيه. فالشخصية الرئاسية لا تُكْتسب عن طريق المفاهيم التى يحملها الرئيس فى ذهنه، أو عن طريق اللوائح والقوانين التى تُسَيِّر دفة العمل، بل تُكْتسب تلك الشخصية الرئاسية عن طريق المؤثرات النفسية التى يكتسبها الرئيس فى المواقف المتباينة من أولئك الخاضعين لإمرته من مرءوسين.

ولسنا نغالى إذا ما قلنا إن الخبرات التى يحملها الصغار، لا تكون بالضرورة أقل وأخفض مقامًا من الخبرات التى يحملها الكبار. وهناك من الخبرات ما ينطفئ بعد الانخراط فى مرحلة عمرية معينة. فخبرة الحَبْو تنطفئ بعد أن يتعلم الطفل خبرة المشى. وخبرة الجرى التى يتمتع بها معظم الشباب: تنطفئ لدى الشخصيات نفسها بعد الانخراط فى الكهولة. وثمة فى الواقع دوائر خِبْرية متداخلة بين الصغار والكبار. فقد يشترك الصغير فى خبرة مع الكبير، وقد يتفوق الكبير فى جانب ما من جوانب الخبرة، كما أن الصغير قد يتفوق على الكبير فى نوعية أخرى من الخبرة. خذ مثالاً لذلك بطالب فى المرحلةالثانوية. إن مدرس الرياضيات يتفوق على ذلك التلميذ فيما يتعلق بالمعلومات الرياضية التى يقوم بتدريسها له. ولكن ذلك التلميذ نفسه يتفوق غالبًا فى باقى المواد الدراسية المقررة بالمنهج على مدرس الرياضيات الذى وإن كان قد درس تلك المواد الدراسية أيام كان طالبًا، فإنه فى الغالب يكون قد نسيها وأهملها، ولم يَعُد مداومًا على الاستزادة منها.

وحتى فى مجالات العمل فإنك تجد أن رئيس العمل كثيرًا ما يلجأ إلى أحد مرءوسيه لكى يقف منه على معلومة، أو لكى يأخذ مشورته فى أمر ما من أمور العمل، ويكون ذلك

شاهدًا على أن ذلك المرءوس يحمل فى قوامه الخِبْرى جانبًا من الخبرة لا يتمتع به رئيسه. ولكن هذا لا يعنى أن الرئيس لا يحمل خبرات أخرى يتفوق بصددها على ما لدى مرءوسه، ولعلنا نخرج من هذا بأن ثمة تيارين خبريين أو تربويين أحدهما يمر من الرئيس إلى المرءوس والثانى يمر من المرءوس إلى الرئيس. فكما أن المرءوس يتعلم من الرئيس، كذا فإن الرئيس يتعلم من المرءوس. والواقع أن قوة الإرادة لدى الكبير تعتمد على الحصيلة الخِبْرية التى يكتسبها من تعامله مع الصغار. وإذا كانت الإرادة تقوى نتيجة الاحتكاك والتحدى بعد الوقوف على بعض الصعاب التى تعترض طريق المرء، فإننا نجد أن الكبار فى جميع المجالات يقفون موقف المتحدى والمناهض لما يمكن أن يشكّله الصغار من عقبات أو تحديات. فحتى الأم لدى قيامها بعملية الوضع، تجد أن الطبيب والمحيطين بها يحثُّونها على شحذ إرادتها، وتجنيد طاقتها العصبية لعملية الولادة. وأذا كان هذا هو الشأن بإزاء عملية الوضع، فإننا نجد أن الأم بعد أن تلد، تأخذ فى الانخراط فى سلسلة من التحديات، وقد وقف فى طريقها الكثير من الصعاب المتعلقة بتربية طفلها، ولا يكون عليها سوى تقوية إرادتها حتى يتسنى لها أن تنتصر فى معركة رعاية الطفل. فوجود ذلك الطفل وما يُشَكله ذلك الوجود من تحديات أمام

الأم، يكون له الفضل فى تقوية إرادتها، وفى شحذها وجعلها على أهبة الاستعداد للتصدى لما قد يحمله المستقبل لها من تحديات جديدة.

ولقد يكون التحدى الذى يعلنه الصغير ضد الكبير صريحًا أو ضمنيًا. فالتلميذ فى الفصل قد يعمِد إلى تقييم مدرسه فيما يقوم بتدريسه له، فُيعد بعض الأسئلة، ويأخذ فى توجيهها إليه أمام زملائه لعله يكتشف جهل أستاذه، فيأخذ فى التشهير به . فعندما يحس ذلك المدرس بهذا الموقف الذى يتكرر من تلميذ لآخر، فإنه يشحذ إرادته الذهنية، ويعكف على المراجع والمصادر المعرفية ينهل منها، ويتسلَّح بما تحتويه من كنوز معرفية تحسُّبًا لما يمكن أن يوجهه بعض التلاميذ إليه من أسئلة لا بقصد الاستفادة، بل بقصد الإحراج والتحدى.

ولكن تحدى الصغار للكبار لا يقتصر على الجانب المعرفى، بل قد يتعداه إلى الجانب الوجدانى. فثمة من الصغار من يرغبون فى تقييم مدى قدرة الكبير على ضبط النفس، وتحمُّل الموقف المثير أو الكلمة الجارحة، أو الموقف الذى يتسم بالإحراج والإثارة. فالتلميذ قد يقوم بالإتيان بحركة، أو قد يبدى ابتسامة تنم عن السخرية بمدرِّسه، أو قد يفتعل سؤالاً

سخيفًا خارج الدرس، أو قد يوجه لفظًا نابيًا إلى أحد زملائه حتى يستثير غيظ المدرس. ولكن المدرس المحنًك يعرف كيف يتصرف بإزاء هذه الموقف، بل إنه يكون قد اكتسب قوة إرادة وجدانية عصبية. فهو لا يثور وينفعل، بل قد يوقِّع العقوبة الرادعة بأعصاب متزنه هادئة. وقد يتوقف عن تقديم رد فعل مباشر، ويؤجل ما سوف يتخذه من تصرفات فعالة بعد وقت يقصر أو يطول. المهم أنه يكون قد اكتسب قوة إرادة يستطيع بها أن يضبط انفعالاته، ولا يكون فى مهب ريح الانفعالات، ولا يقدم رد فعل كاستجابة مباشرة للمواقف المثيرة.

والواقع أن الكثير من المفكرين وأرباب القلم قد اكتسبوا القدرة على الكتابة الإبداعية والتأليف نتيجة المواقف والخبرات التى مروا بها واكتسبوها من خدمة الصغار. فعلماء التربية لم يحصلوا على معرفتهم بالطفولة وبالأصول التربوية إلا نتيجة احتكاكهم وتعاملهم مع الصغار. والكثير من المؤلفين من أمثال العقاد والمازنى تمرَّسوا بالكتابة نتيجة اشتغالهم بالتدريس. فلكأن الصغار كانوا معلمين للكبار بطريق غير مباشر. وحتى بالنسبة للطبيب فإن المريض الذى يعتبر هو الصغير موقفيًا بإزاء الطبيب، إنما يكون مصدرًا خبريًا للطبيب، فهو يكتسب خبرته النطاسية نتيجة خدمته للمريض. فعلى الرغم من أن الطبيب يقوم بمعالجة المريض.

فإن المريض من جهة أخرى يكون المصدر الخِبْرى الذى ينهل الطبيب منه خبراته الطبية.

وخلاصة القول أن ثمة دورًا ذا بال وبعيد المدى يلعبه الصغار فى شحذ همة الكبار، وفى شد أزر إرادتهم وتقويتها، سواء من الناحية المعرفية، أم من الناحية الوجدانية، أم من الناحية الأدائية. وإذا ما وضعنا هذا نُصْب أعيننا، فإننا سوف نَتَّشح بالتواضع تجاه الصغار، معترفين لهم بالفضل فيما نكتسبه من خبرة نُسَيِّر بها دفة حياتنا، ونسوس بها مواقفنا المتباينة.

دور الكبار فى تربية الإرادة :

إن الشائع فى الأذهان وعلى الألسنة والأقلام، أن الكبير هو المسئول عن تربية الصغار بعامة، وعن تربية إرادتهم وتقويتها بخاصة. ولكننا رأينا فى الموضوعين السابقين أن الأتراب من جهة، والصغار من جهة أخرى يشاركون فى تربية المرء وفى شحذ قوة إرادته. وأكثر من هذا فقد قلنا إن الصعاب والعقبات التى تُفْعم الحياة، وتشيع فى العلاقات الإنسانية، وفى الواقع الحضارى، تعمل بدورها على حفز إرادة المرء وتحمله على إبداء قوة شكيمته وإصراره وعناده لإثبات وجوده،وتخطى العقبات، وتذليل الصعاب، وشق طريقه فى الحياة بنجاح.

وغنى عن القول أن الكثير من الآباء والأمهات لا ينجحون فى تربية إرادة أولادهم نتيجة ما يتذرعون به من وسائل تربوية رديئة، أو نتيجة القسوة أوالتدليل من جهة، أو نتيجة الإهمال أو الإفراط فى الرعاية من جهة أخرى، كما سبق أن قلنا. ولكن يجب أن نعترف بأن من الصعوبة بمكان تحديد الخط الوسط الذى يجب اتخاذه مع الأولاد حتى يتسنى تقوية إرادتهم، ولكن بصفة عامة فإننا نستطيع أن نقرر أن الآباء والأمهات الأسوياء يتسنى لهم تربية أولادهم على النهج السليم بحيث يُنْعمَون بالإرادة القوية.

ولكن هل يعنى هذا أن أصحاب الإرادة القوية قد خضعوا بالضرورة لتربية آباء وأمهات أسوياء ؟ الواقع أن هذا غير صحيح بإزاء كثير من الحالات. ذلك أن هناك نوعًا آخر من التربية غير التربية التى يقوم بها الآباء والأمهات والمعلمون هى التربية الذاتية. فالواقع أننا نوجِّه أنفسنا توجيهًا ذاتيًا بمساعدة الظروف التى تحيط بنا. فالكثير من أقوياء الشخصية أصحاب الإرادات القوية، قد استطاعوا أن يوجهوا دفة حياتهم بطريقة ذاتية، أو قل إنهم قاموا بتصحيح ما أخطأ فيه الكبار الذين تولَّوا شأن تربيتهم فى الطفولة والمراهقة، فجعلوا من الأخطاء التى وقع فيها الكبار نقط انطلاق عكسية، وذلك بالمخالفة عما اعتادوا عليه، فأخذوا

يتمرسمون بعادات جديدة غير ما اعتادوا عليه فى الطفولة والمراهقة، فتفتقوا بذلك عن شخصيات جديدة غير الشخصيات التى عُرفوا بها فى نشأتهم الأولى. فكم من شخص كان فى بواكير حياته طريًا مطواعًا لمشيئة الآخرين، ثم صار صُلْبًا عنيدًا بإزاء الصعاب، وقد صار يشق طريقه فى الحياة بإرادة لا تُفل، وبعزم لا ينضب، وبهمة قعساء لا تَنِى.

ولقد يقيِّض لبعض الناس فى المراهقة أو الشباب شخصيات رائدة يتخذون منها مثلاً عليا يقتفون أثرها، أو يستلهمونها، ويأخذون عنها. ولقد تكون تلك الشخصيات بعيدة عنهم مكانًا أو زمانًا أو بعيدة عنهم مكانًا وزمانًا معًا. فتجد أن تلك المثل العليا أو الشخصيات التى استحوذت على فكر وقلب المراهق أو الشاب، وقد صارت تعمل عملها فى قوامه الداخلى، وصارت تستنهض لديه هممًا كانت راكدة، وحوافز كانت هاجعة، وطاقات كانت خامدة. ولقد تكون العلاقة بين المراهق أو الشباب بالمثل الأعلى الذى استهدى به علاقة عابرة لا تكاد تتعدى مقابلة واحدة أو كلمة أو عبارة فاه بها، ولكن تلك العلاقة العابرة كان لها سحر خاص فى القلب، فأخذت تفجِّر لديه الحماسة الشديدة لتعويض ما فاته فى سابق حياته من نجاح وتبريز، أوصارت بمثابة عوامل تصحيح لما سبق أن تردَّى فيه من أخطاء، أوما شاب ذهنه من

أفكار خاطئة، وما اعتاد عليه من عادات عقلية ووجدانية وأدائية غير سديدة أو رديئة.

وإذا نحن نظرنا إلى الشخصية بنظرة تفاعلية، ولكن أيضًا بنظرة تراكبية، بمعنى أن كل تفاعل خبرى جديد يكون بين المؤثرت الجديد متفاعلاً مع القوام الكلى للشخصية مع عدم تلاشى مراحل النمو التى مر بها المرء من قوام شخصيته فى الوقت نفسه، فإننا بناء على هذه النظرة إلى الشخصية نستطيع أن نقول إن كل مرحلة عمرية يصل إليها المرء تكون بمثابة شخصية أكثر نضجًا من الشخصيات السابقة عليها، والتى ما تزال متربعة وفاعلة فى قوام المرء. فنحن فى الواقع نحمل فى قوامنا جميع مراحل العمر التى مررنا بها. فالشيخ يحمل فى قوامه كهولته وشبابه ومراهقته وطفولته وحتى المرحلة الجنينية التى سبقت ميلاده. وما نزعمه هنا هو أن المراهق يقوم بإعادة تربية الطفل الذى يحمله فى قوام شخصيته، وكذا فإن الشاب يقوم بإعادة تربية المراهق والطفل الموجودين فى شخصيته، وكذا يقال عن الكهل من أنه يقوم بتربية أو قل بإعادة تربية الشاب والمراهق والطفل الذين يحملهم فى أنحائه. أخيرًا فإن الشيخ يقوم بتربية الكهل والشاب والمراهق والطفل الذين يظلون قائمين ونشطين فى قوام شخصيته.

فـالواحـد مـن الناس بنـاء على هذه النظرة، هو مـجـمـوع الشـخـصيـات التى مـر بهـا فـى حياتـه. وكل مرحلة عـمـرية تاليـة تعتبـر شـخـصيـة قائمـة بذاتهـا، وهـى بالطبـع شـخصيـة أكبـر من الشخصيات السابقة عليها. على أن هذه النظرة وهذا التفسير لا يعنـى أننـا نقـول بتفسُّخ الشـخـصيـة الإنسـانيـة. فلقـد أخـذنـا الحـذر مـن ذلك بأن قلنا بـالتـفـاعـلات الخـبـريـة التى تجـعـل الشـخـصـيـة بمثـابة مُركَّب، ولكن ذلك المركب يحـتـوى على العنـاصـر، بل وعلى المركبـات التى سبـقـت المرحلة التـركيـبيـة النهـائيـة التى تـأتـت له فـى المرحلة العـمـريـة التى يمر بهـا الآن. فالشـخصيـة كالماء باعتبـارهـا مركبًا مـن غـازين. ولكن الماء برغم أنه مركب فإنه لم يفقد أيا من الغازين اللذين يتركب منهما.

فنحـن نقـول إذن بالشـخـصيـات النمـائيـة التى تأتـت لنا نتيجة مـرورنا فـى مراحل عـمرية متبـاينة لكل منهـا خصـائصه الخـاصـة به والتـى تتمـيـز من خصـائص كل مـرحلة من المراحل العـمرية الأخرى. ولعلنـا نزعم أيضًا أن المرحلة العـمريـة الأكبـر، تعمل على تعـويض المراحل العـمرية السابقة عـمـا فاتهـا من قوة الإرادة. فـالشـيـخـوخة يمكن أن تقـوم بتـقـوية إرادة الكهـولة إذا كان المرء قد اتصف بضـعف الإرادةفى الكهولة. وقس على هـذا جميع المراحل العمرية السابقة عليها.

فنحن إذن نؤمن بالنظرة التعويضية فى تربية الذات. فما فاتنا فى مراحل العمر السابقة، يمكن إن نعوّض أنفسنا عنه مرة أخرى، وذلك باستحضار المرحلة العمرية التى كنا فيها ضعاف الإرادة، ثم نعمل على تقويتها كما لو أنها أمامنا الآن، وكما لو أننا نمر بها حاليًا. ولقد تكون ثمة حاجة إلى من يمد إلينا يد المساعدة من المعالجين النفسيين. ومعنى هذا فى الواقع أن العلاج النفسى فى المستقبل سوف لا يقتصر على مجرد تخليص المرضى نفسيًا مما وقعوا تحت سطوته من اعوجاجات نفسية، بل إنه سوف يتعدى هذا المستوى إلى مستوى جديد هو حفز الإرادة، أو قل بتعبير أدق العمل على علاج ما مر به المرء من مراحل نمو لم يكن متمتعًا خلالها بإرادة قوية.

وإذا نحن نظرنا بنظرة تاريخية، فإننا نجد مفهومًا جديدًا للكبار. فكل الشخصيات المذكورة بالتاريخ هى شخصيات كبيرة عنا. فالكبر والصغر لا يحسب فى ضوء السن التى مات فيها الشخص المذكور فى التاريخ، بل يحسب بحساب آخر هو السنوات، أو قل الأجيال التى أثرت فيها شخصيته. فمن الواجب ألا نحسب أعمار الأنبياء والعظماء وجميع الشخصيات العظيمة التى خلدها التاريخ بالعمر الزمنى الذى عاشوه على الأرض، بل يجب أن نقيس أعمارهم

بمقياس الأجيال المتتالية التى أثروا فيها وصاروا مثلاً عليا لآلاف أو ملايين أو حتى بلايين الناس. فإذا أخذنا بهذا المقياس الزمنى، فإننا نجد أنهم كبار بالنسبة لجيلنا الذى يتأثر بهم، ويقتدى بسلوكهم، حتى ولو كان الواحد منا أكبر سنًا من الشخصية التاريخية التى يقتدى بها، وهى الشخصية التى ربما ماتت أو قتلت فى سن الشباب أو حتى فى الطفولة.

ولا شك أن الشخصيات التاريخية التى نعتبرها أكبر منا بهذا المقياس الذى ذكرناه تساعدنا فى تقوية إرادتنا فى جانب أو أكثر من جوانب الشخصية. فنحن نتأسَّى بهم، ونتخذ منهم نبراسًا نقتفى أثره فى مواقف الحياة المتباينة. بيد أن من الخطأ أن يجعل الواحد منا نفسه نسخة مكررة من أى شخصية تاريخية. فمن الخطر أن يسقط المرء من حسابه التطورات الحضارية التى مرت بها الإنسانية، واختلاف الظروف المعيشية، وحتى المواهب والقدرات الخاصة التى يختلف المرء بصددها عن سواه. فلا بأس من أن يتأثر المرء ويتخذ مثلاً أعلى له من شخصية أو أكثر من الشخصيات التاريخية، ولكن لابد أن يقيم الاعتبار كل الاعتبار لما جُبِل عليه هو من مواهب وإمكانات واستعدادات، ولما يحيط به من ظروف وأحوال ومسئوليات. فرجل السياسة المعجب بشخصية عرابى أو محمد فريد، يجب عليه أن يحتفظ بإنيَّته، ولا يكون

تأثره بالبطل الذى يحببه بالذوبان فيه، وإضاعة معالم شخصيته. يكفى أن يأخذ عن بطله قوة الإرادة والتصميم على الاستمرار فى العمل السياسى مكافحا ضد الطغيان أو الاستعمار إذا كان بلده مستعمرا

وحتى بالنسبة للشاب الذى يرى فى والده أوفى أحد أجداده شخصية عظيمة وقوية الإرادة، فإن عليه، وإن تأسَّى به، ألا يذوب فيه فتنمحى شخصيته، ولا تتبدى الفروق الفردية بينه وبين ذلك الأب أو الجد. فليس من المحتم أن يضرب الابن فى الخط ذاته الذى ضرب فيه أبوه أو جده. فالحياة رحبة، والمجالات كثيرة جداً ومتنوعة للغاية. ومن الممكن أن يتفوق ذلك الابن فى ميدان آخر غير الميدان الذى تفوق فيه أبوه أو جده. المهم أن يأخذ عنه قوة الإرادة. ذلك أن العظماء يشتركون جميعًا فى سمة واحدة هى قوة الإرادة. وهذه القوة تكتسب بالمثابرة والمواصلة والاستمرار فى الكفاح والتدرُّب على التغلب على الصعاب، وإبعاد شبح اليأس إبعاداً تامًا عن القلب مهما تقلبت الأيام، ومهما صارت الحياة كالحة ومفعمة بالغيوم، ومهما غطت المشكلات أنحاء المواقف بكاملها. فالواقع أن أقوياء الإرادة لا يهمهم الانتصار على الحياة، بل يهمهم الكفاح ضد صعاب الحياة. فهم يظلُّون فى حرب دائمة ضد ما يعترض طريقهم. إنهم أصحاب مبدأ يتلخص فى الاستمرار فى الكفاح بغير هوادة. ولا تهمهم

الشهرة أو اكتناز المال أو حتى التفوق على غيرهم. المهم فى نظرهم هو الرضى عن النفس، والإحساس بتماسك الشخصية، وعدم الخَوَر تحت نِير الظروف الصعبة، والعقبات الكأداء.

★★★

الفصل الخامس

الإبداعية وقوة الإرادة

الإبداعية وشحذ الفكر :

علينا أولاً أن نحدد معنى الفكر قبل نلقى الضوء على العلاقة بينه وبين الإبداعية. أما عن الإبداعية فقد سبق أن عرضنا لها بالتفصيل فى أعمال سابقة (انظر **سيكولوجة النمطية والإبداعية**) وأيضًا (**سيكولوجية الإبداع فى الفن والأدب**، وأيضًا **الشخصية المبدعة**). وعلينا أيضًا أن نميِّز بين الفكر Thinkingوالعقل mind لأن هذين اللفظين كثيرًا ما يلتبسان أو يتداخلان على الألسنة ولأقلام.

إن العقل كما ورد بقاموس علم النفس لدريفرJames drever, A dictionary of Psychology يتضمن النشاط النفسى أيًا كان بما فى ذلك النشاط الشعورى والنشاط اللاشعورى والنشاط تحت الشعورى. أما الفكر فإنه يعتبر جانبًا من النشاط العقلى، هو النشاط الذى نستطيع تحديد معالمه على النحو التالى :

أولاً - إن الفكر ينحصر فى النطاق الشعورى من النشاط النفسى. ومعنى هذا أننا نستبعد منه الأحلام والنشاط الذهنى الذى يحدث والمرء تحت التخدير. وكذا فإننا نستبعد منه أحلام اليقظة التى تنصب على تحقيق الرغبات عن طريق تلك الأحلام اليقظانة.

ثانيًا - إن الفكر ينحصر فى النشاط الذهنى الإيجابى، وبالتالى فإنه يستبعد النشاط الذهنى الاستقبالى. وبتعبير آخر فإن المدركات الحسية والمذكرات لا تندرج فى نطاق نشاط الفكر. وما يندرج فى إطار الفكر هو الأخيلة والمفاهيم المجردة، وهما الثمار التى تتأتى عن التصنيع الذهنى لما يصل إلى المخ من مدركات حسية ومن ذكريات تختزن بالذاكرة.

ثالثًا - يرتبط الفكر بالكلام الذى يُعَبَّر عنه سواء باللسان أو القلم أم بالاثنين معًا. ويشترط لكى يكون الفكر سليمًا أن يكون جامعًا مانعًا، أى أنه يتضمن بالكلام كل مضمونه ولا يضيف من الكلام ما يزيد عن ذلك المضمون. وبهذا المعنى فإن الفكر والكلام المعبَّر عنه يكونان بمثابة وجهى عملة واحدة.

رابعًا - يعبِّر الفكر عن محاولة سيكولوجية لحل مشكلة، أو سبر لغور مجهول، أو اكتشاف لعلاقة أو علاقات،

أو تخطيط لهدف مستقبلى، أو استثمار لاستعداد ذهنى، أو مجرد التدرُّب على عمليات ذهنية دقيقة، أو لاكتساب خبرة، أو لتقييم فكر المرء أو طريقة تفكيره، أو لتقييم فكر شخص آخر وطريقة تفكيره، أو لتصحيح خطأ أو أخطاء وقع فيها المرء أو أشخاص آخرون.

خامسًا - إن التفكير قد يكون تفكيرًا عَنْعنيًا (أى النقل عن مفكرين آخرين) كما أنه قد يكون تفكيرًا إبداعيًا. فأنا عندما أعرض لفلسفة أحد الفلاسفة، وذلك بتلخيصها فى مقال أو كتاب، فيكون علىَّ إذن أن أحاول المرور بفكرى بنفس الخطوات الفكرية التى مر فيها الفيلسوف. وفى هذه الحالة فإنه برغم معاناتى الفكرية، فإنى لا أكون مبدعًا بل أكون مُعَنْعنًا، أى أنى أكون ناقلاً عنه فكره. أما إذا بدأت فى عمل غير استنادى على الإطلاق أقدِّم فيه فكرًا غير مسبوق، فإن فكرى فى هذه الحالة يكون فكرًا إبداعيًا لا فكرًا نقليًا أو عنعنيًا.

وبعد أن قمنا بتقديم هذه المواصفات الخمس للفكر، فإننا نلقى بعض الضوء على معنى « شحذ الفكر » حتى يتسنى لنا بعد ذلك الوقوف على العلاقة بين شحذ الفكر وبين الإبداعية. إننا نستطيع تحديد معنى « شحذ الفكر » فيما يلى :

أولاً - إن « شحذ الفكر » يعنى جمع شتات الفكر المبعثرة هنا وهناك حول محور واحد لا يريم عنه، ولا ينتقل منه إلى غيره إلا إذا كان فى هذا الانتقال خدمة لذلك المحور الفكرى. ويتطلب هذا التجميع لشتات الفكر، والتوقف عن عمليتى الإدراك الحسى والتخزين التذكرى. والواقع أن المفكرين يتذرَّعون فى سبيل ذلك بوسائل متباينة حسب مزاج كل منهم. فمنهم من يغمض عينيه ويسد أذنيه، ومنهم من يجلس فى حجرة مظلمة ويغلق الأبواب حتى لا تتسرب الأصوات المختلفة إليه. ومنهم من يستطيع أن يظل مع الناس وفى وسط الزحام، أو وهو جالس بإحدى المقاهى، دون أن يتشتت ذهنه، بل يكون غائصًا فى دخيلته، منعكفًا على عالمه الداخلى، دون أن يُلْقى بالاً إلى ما يدور حوله من أحداث أو أحاديث.

ثانياً - وشحذ الفكر يتطلب تجهيز طاقة حيوية يخصصها المفكر لنشاطه الفكرى. وتكون وسيلة ذلك فى الأغلب التوقف عن الحركة والاسترخاء والتخلص من التوترات العضلية والعصبية، وتركيز العينين على بعض الأوراق أو الإنصات إلى موسيقى حالمة هادئة. ناهيك عن أن المفكر يجب أن يكون غير مرهق بالسهر أو ببذل مجهود عضلى أو عصبى قبل جلسة إعداد الطاقة الحيوية للفكر. والواقع أن هذا

التجهيز بحاجة إلى حالة وسط فيما بين التوتر والاسترخاء، وفيما بين التعب والراحة التامة، وفيما بين الانفتاح على الخارج والانغلاق على الداخل.

ثالثًا - وشحذ الفكر يتصف أيضًا بما يسمى بالتهويم Drowsiness والتهويم حالة نفسية تقع فى مرحلة وسط فيما بين اليقظة والنعاس. وهذه الحالة لا تتأتى للمرء وهو فى حالة نشاط جسمى محتدم. إنها تتواكب مع الهدوء الجسمى والنفسى معًا. والواقع أن الشخصيات الملهمة بالإبداعات الفريدة تنخرط لمدد طويلة فى التهويم، وعلى رأس هؤلاء بالطبع سقراط الذى اشتهر بأنه كان ينخرط فى التهويم وهو سائر فى الطريق وعلى مرأى من الناس فى آثينا.

رابعًا- لا يعنى شحذ الفكر إجباره على التوصل إلى نتائج يكون المرء قد حددًّها من قبل. إن هذا الموقف الذى يكون المرء قد حدد فيه ما سوف ينتهى إليه يُعّرف بالمصادرة على المطلوب. وهذا موقف مناف تمامًا لشحذ الفكر. فلكى تشحذ فكرك يكون عليك أن تترك له العنان. إنه هو الذى يحكم نفسه بنفسه، وهو الذى ينتقل من فكرة إلى أخرى دون تقييد من جانبك. اعلم أنك عبد لفكرك وليس فكرك عبدًا لك. إنه السيد المطاع وهو الذى يقوم بتوجيه طاقته الذهنية.

خامساً - إن من يقوم بشحذ فكره لا يسير بغير منهج فى سياسة فكره، بل يتذرع بمنهج معيَّن يتسلح به وهذا المنهج الفكرى يتعلق بالطرائق التى يفكر بها، والتى يعبِّر بها عن المضمون الفكرى الذى يتم له التوصل إليه. والواقع أن منهج التفكير ومنهج التعبير عنه لا يقلان أهمية عن مضمون التعبير نفسه.

وبعد هذا العرض لمعنى الفكر ومعنى شحذ الفكر، فإن علينا أن نُلقى بالضوء على العلاقة فيما بين الإبداعية وشحذ الفكر، فنجد أن العلاقة بين هذين المقوِّمين يمكن أن تتحدد على النحو التالى :

اولاً - إن الفكر الذى تم شحذه يكون مستعداً للاعتمال فى الخامات الخِبرية الإدراكية والتذكرية التى تصل إلى المخ وذلك بواسطة المخيلة من جهة، والقدرة على التجريد والتعميم من جهة أخرى. ولا شك أنه كلما كان الفكر أكثر تركيزًا وشَحّذًا، كانت نتائج التفكير التى يتم تصنعها على جانب عظيم من الأصالة والإبداعية.

ثانياً - إن الفكر الذى تم شَحّذه يكون بمثابة بيئة ذهنية مناسبة لإحداث التفاعلات الخِبرية التى تعتبر بمثابة مُركَّبات خِبْرية أشبه ما تكون بالمركبات الكيميائية. وتخضع

هذه المركبات الخِبْرية لتفاعلات متتالية بحيث يتأتى عن كل تفاعل يقع لها مركب خِبْرى على جانب أكبر من التعقيد.

ثالثًا - وإذا نحن نظرنا إلى هذه المســألة من زاوية رياضية، فإننا نجد أن الفكر الذى تم شَحْذه، بمقدوره أن يُقيم توافيق وتباديل كثيرة ودقيقة فيما بين المقومات الخِبْرية الإدراكية والتذكرية مما ينتهى إلى تكثير تلك المقومات من جهة، وإلى تجديد نوعياتها من جهة أخرى.

رابعًا - وإذا نحن نظرنا إلى هذه المســألة من زاوية بيولوجية، فإننا نستطيع أن نعتبر الخبرات التى تصل إلى مخ المرء كائنات حية تتلاقح فيما بينها، فيتأتى عن تلاقحها إنجاب أجيال جديدة من الخبرات. وهذه الأجيال الجديدة لا تركن إلى الكسل، بل إنهــا تتــلاقح هى الأخــرى بالكائنات الخبرية السابقة عليها والمتواكبة معها. ناهيك عن استمرار تلاقحها مع الخبرات الجديدة التى ترد إلى ذهن المرء.

خامسًا - هناك نقطة مــتــوسطة بين الخَوَاء المعــرفى وبين التُّخمة المعرفية. فلكى يتسنى توظيف الشحذ الفكرى فى العمليات الإبداعية، لابد من التمتع بالموقف الوسيط بين هذين الطرفين المتــقــابلين. فــالواقع أن الكثــيــر من مــدمنى الاطلاع فى مــجــال مــا من المجــالات المعرفية، لا يتسنى لهم

تقديم الجديد الإبداعى فيما أتخموا به عقولهم من معرفة.
وعلى النحو نفسه بالطبع فإن خالى الوفاض من المعرفة لا يتسنى له أن يشارك فى المجال الذى ليس لديه باع طويل فيه.
على أن الواجب الا يفهم من كلامنا هذا أن المرء المبدع يجب ألا يتابع بالقراءة ما يستجد فى مجاله، بل يعنى أن ثمة وقتًا للقراءة ووقتًا آخر لاستيعاب وهضم ما قام المرء بقراءته.
فالمعرفة شأنها شأن الطعام. فمن يأكل لا بد أن يكفل لمعدته الفرصة الكافية لهضم ما أكله.

وما دمنا قد ذكرنا التُّخْمة المعرفية، فيجدر بنا أن نعرض للمعوِّقات الأخرى التى تَحُول دون تمتع المفكر الذى شحذ فكره بالإبداع فى المجال الذى يفكر فيه. إننا نحدد أهم تلك المعوقات على النحو التالى :

أولاً - نقض الثقة بالنفس : فكثيرًا ما تجد أشخاصًا قد تهيأت لهم جميع الفرص المناسبة للمساهمة بالإبداع فى المجال الذى تهيئوا له، ولكن لعدم ثقتهم فى أنفسهم، وخوفهم من توجيه سهام النقد إليهم، فإنهم يُحْجِمون عن تقديم إبداعاتهم.

ثانيًا - نقص التسلح بوسائل الإبانة : فعلى الرغم من شحذ الذهن وإحراز المقومات الإبداعية، فإن عدم إحراز

وسائل التعبير وعدم التمكن من فَنِّيات الإبانه، يشكِّل عائقًا أمام الشخصية التى تأهلت بالفعل للإبداع لولا ذلك العجز الإفصاحى الذى يَحُول بينها وبين تقديم الإبداعات التى يشار إليها بالبنان.

ثالثًا - عدم وجود المتلقين للإبداعات : فالواقع أن المرء لكى يُقْدِم على الإبداع، لا بد أن يكون مدركًا أن هناك من ينتظرون إنتاجه الإبداعى. ولكن لا يكفى وجود المتلقين أيًّا كانوا، بل لا بد من توافر الذين يكونون على المستوى الإبداعى. فإذا أحس الشخص المبدع بأن المتلقين لأعماله الإبداعية، لا يتسنى لهم تقديرها التقدير المناسب، أو أنهم خالو الوفاض فيما يتعلق بالمجال الإبداعى الذى يساهم فيه، فإنه سوف ينكص عن المشاركة الإبداعية، ويحجم عن خوض هذا المجال، ويظل فى حالة عزوف عن ترك بصمته الشخصية على مجالات اهتمامه.

الإبداعية والتدفق الوجدانى :

هناك ثلاثة مقوِّمات رئيسية فى السلوك أيًّا كان : فثمة أولاً المقوِّم المعرفى، وهناك ثانيًا المقوِّم الوجدانى، وهناك ثالثًا وأخيرًا المقوِّم النزوعى أو الأدائى. وبالنسبة للعمل الإبداعى، فإنه بحاجة إلى شحذ الفكر كما قلنا، كما أنه بحاجة إلى

تدفُّق وجدانى كبير حتى يتسنى الخروج به من حيِّز الكمون إلى حيِّز الواقع المؤدَّى. ذلك أن شأن الوجدان شأن الوقود بالنسبة للسيارة أو الطائرة. فكلما كان المحرك على جانب أكبر من القوة، فإنه بالتالى يكون بحاجة إلى قدر أكبر من الوقود، بل ويكون بحاجة إلى نوعية أرقى منه، كذا الحال بالنسبة للعمل الإبداعى، فكما أن هناك انواعًا متفاوتة المستوى من المحركات، كذا فإن هناك أنواعًا من الإبداع متفاوتة المستوى. وكلما كان الإبداع على مستوى رفيع، فإنه يكون بحاجة إلى قدر كبير من الوجدان من جهة، وإلى نوع ممتاز ورفيع المستوى منه.

وعلينا أن نميِّز بين التدفق الوجدانى وبين التفجير الوجدانى. فالتدفق الوجدانى يكون يالقدر المناسب لمراحل العمل الإبداعى. أما التفجير الوجدانى فإنه - كما هو واضح من اسمه - لا يعرف التدرُّج، ولا يقدَّم فى ضوء المطلوب للموقف أو للأداء، أو لمدى أهمية المرحلة التى يتم فيها العمل الإبداعى. فواقع الأمر أن الشخصية المبدعة تتمتع بقدرتين على أكبر جانب من الأهمية : القدرة الأولى - هى القدرة على استحضارالقدر المناسب من الطاقة الوجدانية. فإذا كانت الحاجة إلى قدر قليل من الطاقة الوجدانية، فإن الشخصية المبدعة تستطيع أن توفرها دون تخلف من جهة، ودون أن

يكون تقديمها فى وقت مبكر عن الوقت المناسب لتقديمها من جهة أخرى. أما القدرة الثانية - فهى القدرة على الإلجام الوجدانى. فالشخصية المبدعة تستطيع أن توفِّر الانضباط اللازم لاستهلاك الطاقة الوجدانية، فإذا لم تكن هناك ضرورة لتقديم أو لاستهلاك الطاقة الوجدانية، فيكون بمقدور المبدع أن يمنع سريان تلك الطاقة، ويحتفظ بها إلى حين الحاجة إليها، وإلى حين بزوغ الضرورة لإطلاقها من عُقالها.

وهذا فى الواقع هو الشاهد على قوة إرادة الشخصية المبدعة. فالشخص المتمتع بالقدرة الإبداعية يكون خليقًا بأن يطلق طاقاته الوجدانية إذا أراد، وأن يكبح جماحها ومنعها من السريان إذا أراد. بيد أن هاتين العمليتين تتمان فى الواقع على المستويين الشعورى واللاشعورى. ذلك أن العمل الإبداعى يبدأ والمرء فى حالة وعى شعورى كامل، ولكن ما أن يندمج المبدع فى العمل حتى يحدث لديه ما يسميه هربرت ريد بالاستغراق الوجدانى empathy (انظر كتاب تربية الذوق الوجدانى تأليف هربرت ريد وترجمة المؤلف). وفى حالة الاستغراق الفنى أو الاستغراق الوجدانى، فإن الشخصية المبدعة تكون خليقة بقيادة وجدانها القيادة الحكيمة برغم أنها تكون مستغرقة فى حالة شبه لا شعورية.

وعلينا أن نميِّز بين أنواع متباينة من قوة الإرادة لدى المبدع. فبينما تجد أن المبدع قوى الإرادة فيما ينهمك فيه من أعمال إبداعية، ، فإنك قد تجده ضعيفًا فى إرادته بإزاء بعض الأنشطة الأخرى. فلقد يكون المبدع قوى الإرادة فى مجال ما من المجالات الفنية أوالفلسفية، ولكنه يكون ضعيف الإرادة فيما يتعلق بالمسائل الجنسية أو بإزاء الإغراءات المالية. فهو يكون منضبطًا فيما يتعلق بالمجال الذى يبدع فيه، لا يكون على المستوى نفسه من الانضباط فيما يتعلق بالشئون الجنسية أو فيما يتعلق بالشئون المتعلقة بالمال. فواحد مثل توماس هوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) كان مبدعًا فيما يتعلق بالفكر الفلسفى، ولكنه اتهم فى ذمته المالية، فعزل من منصبه الرفيع بفضيحة مشهورة. وكذا فإن فان جوخ (١٨٥٣ - ١٨٩٠) كان منضبطًا فيما يتعلق بإبداعه الفنى، ولكنه كان متهورًا فيما يتعلق بمسائل الجنس. وبتعبير آخر فإن المبدع قد يكون متمتعًا بالتدفق الوجدانى المناسب للمقام وللعمل الإبداعى بمراحله المتباينة، بينما يكون مصابًا بالتفجر الوجدانى فى جوانب أخرى من شخصيته.

ولعلنا فيما يلىَ نقدِّم الخصائص التى يتصف بها الشخص المبدع بإزاء التدفق الوجدانى :

أولاً - إن التدفق الوجدانى عند المبدع تدفُّق وظيفى، وليس تدفُّقًا غير هادف. فالمبدع فى تحكُّمه فى التدفُّق الوجدانى، إنما يكون مستهدفًا أهدافًا محددة لا يتخطاها، ولا يسمح للوجدان بأن يتدفق بغير ما هدف أو نتيجة انفعال لحظى عابر.

ثانياً - إن التدفق الوجدانى يتجدد بصفة دائبة فى قوام الشخصية المبدعة. وبتعبير آخر فإن الطاقة الوجدانية لدى المبدع تتسم بالحيوية والنشاط الدائم دون أن يصيبها نضوب أو جفاف. وهذا يؤكد أن الشخصية المبدعة تتسم بمجموعة من الخصائص البيولوجية من بينها خاصية الحيوية التى تنعكس على ما يبديه الشخص المبدع من تدفُّق وجدانى. وإنك لتجد أن ذلك الشخص المبدع متدفِّق الوجدان حتى بعد أن يبلغ الشيخوخة. وينعكس هذا فيما يضطلع به من أنشطة ذهنية ومهارية متباينة. ناهيك عما يقدمه من إبداعات غير مسبوقة.

ثالثًا - بيد أن هذا لا يعنى أن الشخصية المبدعة تكون معصومة من الإصابة بالفقر الوجدانى أو من النضوب الوجدانى. صحيح أن الشائع أو القاعدة العامة أن الشخصية المبدعة تمتاز بالاستمرار فى الحيوية والتدفق الوجدانى.

ولكن هذا لا يحول دون القول بأن بعض المبدعين يصابون بالأمراض الجسمية أو بالأمراض النفسية التى يترتب عليها نضوب المَعِين الوجدانى لديهم، أو أنهم يصابون بالتفجر الوجدانى الذى يشكّل عقبة فى سبيل تقديم إبداعات جديدة.

رابعًا - قد تمر بعض الأزمات النفسية المؤقتة فى حياة المبدع لا يكون قادرًا خلالها على التحكم فى تياره الوجدانى، ومن ثمّ فإنه يتوقف مؤقتًا لفترة تقصر أو تطول عن الإبداع. وهذا يؤكد أهمية المقوِّم الوجدانى فى حياة المبدع. فمن ألزم اللزوم أن يكون المبدع متمتعًا بالصحة النفسية وبالانضباط الانفعالى، بحيث يكون فى مقدوره أن يقدم القدر المناسب من الوجدان بإزاء العلميات المتباينة التى يضطلع بها ويضمنها الأعمال الإبداعية.

خامسًا - أخيرًا فمن خصائص التدفق الوجدانى لدى المبدع حرصه الشديد على عدم تبديد طاقته الوجدانية فى عمليات لا تخدم أهدافه الإبداعية. وحتى بالنسبة للاطلاع على الكتب والمجلات، فإن الغالبية العظمى من المبدعين يوفّرون جهدهم فى أثناء قيامهم بالعمليات الإبداعية، فلا يقضون الوقت الطويل فى الاطلاع الخارجى حتى ينتهوا من

العمل الإبداعى. والكثير منهم يُرَكِّزون اطلاعهم فى المجال الذى يبدعون فيه، أو فى مجال قريب منه ولكن بصفة عامة فإن المبدع يوفر طاقته الوجدانية للعمليات الإبداعية التى يضطلع بها.

وعلينا أن نتدراس بعد هذا الدور الذى تضطلع به قوة الإرادة بإزاء التدفق الوجدانى. إننا نجد أن هذا الدور يتلخص فيما يلى :

أولاً - إن صاحب الإرادة القوية يعمد إلى تجديد أهدافه فى الحياة. فكلما حقق هدفًا ما من أهدافه، فإنه يأخذ فى تَرَسُّم هدف جديد يحل محل الهدف الذى حققه. ذلك أن تجديد الأهداف يتضمن فى الوقت نفسه تجديد التدفق الوجدانى. وعلى العكس من هذا فإن التوقف عن تجديد الأهداف يؤدى فى الوقت نفسه إلى نضوب ذلك التدفق. وواضح أن تجديد الأهداف يخضع لما تحتِّمه الإرادة وتصمم عليه.

ثانيًا - الواقع أن المبدع عندما يكتشف الجديد غير المسبوق، فإن الفرحة تغمره، وبالتالى فإنه يتحفز بإرادته، ويأخذ فى الاستمرار فى الكشف عن المجهول. وكما يقول المثل الإنجليزى فإن النجاح يقود إلى نجاح أكثر. وكذا الحال

بإزاء الفرحة التى يحسها المبدع. إنه ينتعش أكثر فأكثر مما يحفز إرادته، ويدفع بها للاستمرار فى عمليات الكشف عن المجهول الذى لم يسبق لأحد الكشف عنه أو ابتداعه.

ثالثًا - من المعروف أن المبدع عندما يتوصل إلى مرحلة إبداعية معينة، فإنه يأخذ فى تقييمها فى ضوء ما سبق له اكتشافه أو إنجازه. وهو عندما يجد أن ما توصل إليه آخذ فى التقدم باستمرار، وأنه قد قطع شوطًا ذا بال فى المجال الإبداعى، فإن هذا التقييم يحفز إرادته وينشط التدفق الوجدانى الذى - كما قلنا - يعتبر بمثابة الوقود الذى يحرك محرك الإبداع والكشف عن المجهول.

رابعًا - والواقع أن قوة الإرادة هى التى تساعد المرء على تحسين الوسائل التى يستخدمها فى الكشف عن المجهول، أو فى سَبْر أغوار آفاق لم يسبق لأحد أن سَبَرها. ولا شك أنه كلما كانت الوسائل المستخدمة أكثر نجوعًا، كانت الثمار أفضل وأرقى. ومما لا شك فيه أن بمقدور صاحب الإرادة القوية أن يجدد فى وسائله التى يتذرع بها لتحقيق أهدافه المتباينة.

خامسًا - وصاحب الإرادة القوية لا يركن إلى اليأس إذا ما صدم بالعقبات والصعاب تعتور حياته، وتقف له بالمرصاد،

وتَحُول بينه وبين تحقيق أهدافه. إنه بإرادته القوية يجدد أهدافه، وفى الوقت نفسه يقشع ضباب اليأس من آفاق حياته. إنه يُحِل الأمل محل اليأس، بل إنه يتذرع بالتفاؤل بعد أن يَمْحق التشاؤم من قوام حياته ومن أفقه النفسى. فهو يتطلع إلى مستقبل مجهول، ولكنه مستقبل سوف يكون مُكَللاً بالنجاح والفلاح والبشر والفرح. وإذا نحن تأملنا العلاقة بين التدفق الوجدانى وقوة الإرادة، فإننا نجد أن لذلك التدفق تأثيرًا فى قوة الإرادة، كما أن لقوة الإرادة تأثيرها فى التدفق الوجدانى. فمما لا شك فيه أن ذلك التدفق يحمل المرء على توظيفه فى مواقف الحياة المتباينة. وهذا لا يتأتى إلا إذا عمل التدفق الوجدانى على تنشيط إرادة المرء، وبالتالى تقويتها وجعلها مستعدة لمساعدته على شق طريقه فى الحياة، بل ومساعدته على الإدلاء بدَلْوه فى مجال الإبداعية، فيحقق حظًا فى هذا الصدد بقدر ما أهِّل به من استعدادات، وبقدر ما استطاع استثماره واستنهاضه من تلك الاستعدادات. والخلاصة أن التدفق الوجدانى يلعب دورًا خطيرًا فى حياة المرء وبخاصة فيما يتعلق بالمجالات الإبداعية.

الإبداعية والمحاولة والخطأ :

إن الطريق إلى الإبداعية ليس مفروشًا بالورود والرياحين. إنه طريق محفوف بالغموض وملَّبد بالضباب ؟ إنه

طريق ليس محدَّد المعالم، فلا يستطيع المرء أن يختاره وهو مفتح العينين، وموجِّهًا بصره إلى أهداف محددة واضحة. والعكس هو الصحيح. فمهما كان المبدع متفتق الذهن وحائزًا على بصيرة ووعى بالمجال الذى يعمل فيه، فإنه يكون خاضعًا للحظ الحسن والمصادفات السعيدة. من هنا فإنه يعمد إلى الاستعانة بمنهج المحاولة والخطأ فى سَعْيه نحو اكتشاف المجهول. والواقع أن الطريق إلى الإبداعية لو كان معبدًا، لما تعذر على أى شخص مرتفع الذكاء أن يكون مبدعًا. بيد أن الإبداع مقيَّض لفئة قليلة من الناس هم العباقرة الذين يتذرَّعون بمنهج المحاولة والخطأ برغم عبقريتهم الفذة.

ومنهج المحاولة والخطأ يَتَّسم بمجموعة من السمات التى نستطيع تقديمها فيما يلى :

أولاً - إن من يَتَّبع منهج المحاولة الخطأ لا يسير بطريق التخمين أو الخضوع للمحاولة العمياء، بل إنه يضع نصب عينيه مجموعة كبيرة من الاحتمالات أو من الخيارات، ثم يقوم بالتجربة والمقارنة فيما بين النتائج التى تتأتى عن تجربة وتطبيق كل احتمال أو كل خيار من الخيارات التى وضعها نُصب عينيه.

ثانيًا - إن منهج المحاولة والخطأ لا ينصب على الوسائل المتعددة التى يترسمها المرء، أو يقوم بالاختيار من بينها، بل إنه يتضمن أيضًا الأهداف القريبة والأهداف البعيدة، فيقوم بالتقديم والتأخير بين الأهداف المتباينة، فيجعل الهدف البعيد هدفًا قريبًا، بينما يقوم بتأجيل هدف قريب ويجعله هدفًا بعيدًا. وكذا فإن هذا المنهج يتضمن المقوِّمات المختلفة والمضامين المتباينة، فيقوم المرء بعمليتى الإضافة والحذف من تلك المقوِّمات والمضامين التى يضعها نُصب عينيه.

ثالثًا - إن منهج المحاولة والخطأ يتضمن الخيارات العديدة التى يضعها المرء أمامه بإزاء الأدوات والخامات والأجهزة التى يستعين بها. وحيث إن التكنولوجيا فى تدفُّق مستمر وفى تقدم دائم لا يتوقف، لذا فإن المستعين بهذا المنهج يجد أن من الضرورى انتقاء أفضل ما فى العصر من تكنولوجيا وخامات، ولكنه يفتح المجال أمامه للتبديل والحذف والاستغناء، كما يفتح أمامه مجال استيراد الجديد الذى لم يسبق استيراده واستخدامه ويأخذ فى تجربته.

رابعًا - وهذا يُفْضى بنا إلى العمليات التقييمية التى يستعين بها الآخذ بمنهج المحاولة والخطأ. فالواقع أن هناك العديد من مناهج التقييم، ولا يكون المبدع متأكدًا من الوقوع

على أفضل منهج من تلك المناهج التقييمية المطروحة أمامه. من هنا فإنه يأخذ فى تجربة ما يستطيع تجربته من المناهج التقييمية المتاحة إلى أن يصل إلى أفضلها فيأخذ به ويطبقه فى تقييمه للنتائج التى يحرزها.

خامسًا - أخيرًا فإن هذا المنهج المسمى بمنهج المحاولة والخطأ يضع فى اعتباره الحالات النفسية والمزاجية المتباينة التى يتقلَّب عليها المرء. فهو إذن يعيد التطبيق المرة تلو المرة خوفًا من أن تكون حالاته المزاجية التى تَقَلب عليها قد أثرت فى النتائج التى توصل إليها. وحتى بالنسبة للحالة العقلية فإن المرء يتقلب بين الانتباه الشديد وبين شرود الذهن. من هنا فإن التجريب المرة تلو المرة من الأهمية بمكان.

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن الكيفية التى تمر بها الإبداعية عن طريق اتباع منهج المحاولة والخطأ ؟ إننا نستطيع أن نجيب عن هذا التساؤل بتحديد مجموعة من النقاط على النحو التالى :

أولاً - لا شك أن الشخصية المبدعة تتمتع بموهبة خاصة فى المجال الذى تعمل فيه. والموهبة الخاصة مباينة للذكاء. صحيح أن صاحب الموهبة الخاصة يجب أن يكون متمتعًا بمستوى ذكاء مرتفع، ولكن ليس لديه موهبة خاصة

عظيمة فى الرسم أو النحت أو الموسيقى أو غير ذلك من مجالات لكل منها طابع خاص بحاجة إلى موهبة خاصة. وحتى صاحب الموهبة الخاصة فى مجال ما من المجالات المعرفية أو التذوق أو الأدائية أو الاجتماعية فى حاجة إلى التذرع بمنهج المحاولة والخطأ لكى يتحسس الطريق إلى ما يتسنى له إبداعه فى مجاله الخاص الذى وُهِب بصدده موهبة خاصة. صحيح أن الموهبة الخاصة بحاجة إلى تغذية ودُرْبة وتعلم واكتساب خبرى مستمر، ولكن كل هذا لا يغنى عن التذرع بمنهج المحاولة والخطأ.

ثانياً -وما دامنا قد ذكرنا الذكاء وما له من صلة بالقدرة الخاصة، فلا بد لنا من التعرض له، وللدور الذى يلعبه لدى الشخصية المبدعة، وعلاقته بمنهج المحاولة والخطأ. فالواقع أن الذكاء هو القدرة على إقامة علاقات معينة بين عناصر الموقف، ثم هو القدرة على اكتساب الخبرات المتباينة، وعلى الإفادة منها فى مواقف الحياة المتباينة. من هنا فإننا نستطيع أن نقف على العلاقة بين القدرة الذكائية وبين استخدام منهج المحاولة والخطأ فى التوصل إلى إبداعات جديدة غير مسبوقة. فإذا نحن تصفحنا ما ذكرناه من تعريفات ثلاثة للذكاء، فإننا نستطيع أن نستبين أن الذكاء باعتباره القدرة على إقامة العلاقات من جهة، والقدرة على اكتساب الخبرات

والإفادة منها فى المواقف الجديدة من جهة أخرى، فإننا نستطيع أن ندرك العلاقة إذن فيما بين الذكاء وبين الإبداع. ولكن لا بد أن نعترف فى الوقت نفسه بأن الذكاء ليس خليقًا وحده بإحراز الإبداع، بل لا بد من الاستعانة بمنهج المحاولة والخطأ فى هذا السبيل.

ثالثًا - ومن جهة ثالثة فإننا نجد إلى جانب الذكاء والقدرات الخاصة مقومًا ذهنيًا ثالثًا هو الحدس intuition. والحدس هو القدرة على الوقوف على بعض الحقائق بغير استعانة بركائز أو مساند يستند إليها المرء، وبغير توافر شواهد تشير إلى ما يمكن أن ينتهى إليه من خلاصات. فالحدس قدرة ذهنية، ولكنها قدرة لا تغنى عن الاستعانة بمنهج المحاولة والخطأ. فالشخص الحادس يضع أمامه الخيارات أو البدائل ثم يقوم بالاختيار من بينها. وليس من المقطوع به أن الحدس يَصْدق دائمًا. فلقد يخيب الشخص الحادس فيما حدس بصدده. ومن ثمَّ فإنه يعيد الكَرَّة المرء تلو المرة إلى أن يصيب كبد الحقيقة، أو إلى أن يوفق فى الوصول إلى الإبداع عن طريق الاستعانة بمنهج المحاولة والخطأ.

رابعًا - ومادامنا قد ذكرنا الحدس فلا يكون ثمة مناص

من ذكر الإلهام. والإلهام بمثابة رسالة روحية تنبعث من خارج نطاق المرء إليه (انظر كتابنا سيكولوجية الإلهام) والواقع أن الشخصية الملهمة وإن كانت تستعين بتلك الرسائل الروحية فيما تتخذه من مواقف، فإنها من جهة أخرى تستعين بمنهج المحاولة والخطأ. فالشخص الملهم يقع على خيار من بين خيارات عديدة مطروحة أمامه، ويستعين بمنهج المحاولة والخطأ ولو ضمنيًا وهو يستعين بقوة إرادته فى استقبال المقومات الإلهامية التى تمنح له. ولولا ما يستعين به الشخص الملهَم من قوة إرادة استقبالية، لما استطاع أن ينجح فى التذرع بمنهج المحاولة والخطأ. وعلينا أن ننبه إلى أن الإلهام ليس رسالة ملزمة للشخص الملهَم. فالواقع أن الشخص الملهَم يمكن أن يُلْهم بأكثر من إلهام واحد فى الوقت الواحد، وقد تكون الإلهامات التى يستقبلها متعارضة بعضها مع بعض، فلا يكون من سبيل أمامه سوى أن يقوم بعملية فرز لما استقبله من إلهامات ويأخذ به. فهو إذن يصل إلى إبداعاته ليس كنتيجة حتمية لما يقدَّم إليه من إلهام واحد ووحيد، بل إنه يقوم بعمل إيجابى تجاه ما يقدم إليه من إلهامات متباينة أو حتى متعارضة، ولكن استعانته بمنهج المحاولة والخطأ استعانة عقلية قبل البدء فى الخطوات العملية التنفيذية.

الإبداعية والكشف عن المجهول :

دأب الإنسان منذ القدم على محاولة الكشف عن المجهول. بيد أن المجهول الذى دأب الإنسان على الكشف عنه، ينشعب إلى أنواع متباينة لعلنا نحددها على النحو التالى :

أولاً - عالم الجوامد : الواقع أن الإنسان عندما نشأ على الأرض، فإنه بدأ بملاحظة الطبيعة، وكان منبهرًا بها، مما حمله على عبادة ما كان يعجز عن تفسيره أو الإلمام بمقوماته. فعبد الشمس والقمر والنجوم والنار وغيرها. ولكنه لم يكتف بالملاحظة والانبهار، بل أخذ يتحسس طريقه نحوها بحذر وترقب، وفى بعض الأحيان بخوف ورعدة، ثم أخذ يتجرأ شيئًا فشيئًا بإعمال يديه فى الأشياء من حوله. وما كان منه إلا أن قام باختراع أول فأس صار يجرح بها أمه الأرض، كما استطاع أن يطوِّع النار لإرادته. فإذا هو دق حجرًا بحجر آخر فإن النار تنبعث. وإذا هو فعل ذلك إلى جانب بعض الأعشاب الجافة فإنها تشتعل. وإذا هو صب عليها الماء فإنها تخمد وتتوقف عن الاستمرار فى الاشتعال. وأكثر من هذا فإنه استطاع أن يحفر كهوفًا فى الجبال يختبئ فيها من الوحوش الضارية والطيور الكواسر. واستمر الإنسان يبحث عن المجهول فى الجوامد إلى أن انتهى به المطاف فى نهاية الأمر إلى تفتيت الذرَّة وتطويعها لإمرته فيما يتعلق بأهدافه المختلفة.

ثانياً – عالم النبات : والمجهول الثانى الذى أخذ الإنسان منذ قديم الزمان فى الكشف عن أسراره المخبوءة كان عالم النبات. ومن الطبيعى أن يكون الإنسان قد بدأ بالملاحظة ثم بالتجريب. فكانت أول تجربة له فى عالم النبات هى نقل الأشجار من مكان لآخر، وتلا ذلك بذر البذور واختراع الزراعة التى انتهت فى قمة الحضارة الحديثة بهندسة الوراثة التى صار الإنسان بمقتضاها سيداً على أسرار الوراثة وسبر أغوارها وإخضاعها للتطوير المستهدف لتحقيق أهدافه المحددة.

ثانياً – عالم الحيوان : والمجهول الثالث الذى عمد الإنسان إلى غزو آفاقه كان عالم الحيوان. وكان طبيعيا أن يبدأ الإنسان بالملاحظة كما فعل بإزاء الآفاق الأخرى إلى أن بدأ فى تحقيق أهداف لفائدته. فكان أن تناول بعض الحشرات كالجراد وجعلها طعاماً له، ثم تدرَّج بعد هذا إلى أنواع أخرى من الكائنات الحية الحيوانية كالأسماك والطيور وأخذ يتناولها، ثم استطاع أن يستأنس البقرة والجاموسة والحمار، وصار يأكل لحمها ويشرب ألبانها، ولكنه وجد أن الحمار مفيد فى الانتقال على ظهره من مكان لآخر، فامتنع عن ذبحه وصار الحمار أول وسيلة من وسائل المواصلات اخترعها الإنسان. وكذا فإنه اكتشف طريقة لإيصال الرسائل إلى

البعيدين عنه بعد أن تقدَّم فى مسيرة الحضارة وذلك عن طريق تعليق الرسالة فى أجنحة الحمام الزاجل. وهكذا استمر الإنسان فى سَبْر المجهول فى عالم الحيوان وما يزال مستمرًا فى ذلك، فاكتشف التهجين ثم هندسة الوراثة فى نهاية المطاف.

رابعًا - عالم الإنسان : ومن الطبيعى أن يقوم الإنسان بمراقبة شريكه فى الإنسانية، ولكن ملاحظة الإنسان لأخيه الإنسان أتت فى مرحلة متأخرة. وما استرعى انتباهه منذ العهود البدائية هو تباين الناس بعضهم عن بعض فيما يتعلق بلون البشرة والملامح والطول وتركيب الجسم واللغة والتقاليد والعادات والمعتقدات وغير ذلك من تباينات. واعتقد الإنسان أن تلك التباينات ليست تباينات عارضة، بل هى تباينات أو اختلافات جوهرية. ومن ثَمَّ فإنه صار ينظر إلى الجنسيات الأخرى مثل نظرته إلى أنواع الحيوانات المتباينة. فلماذا لا يستخدم أصحاب البشرة السوداء مثلاً بدلاً من استخدامه للحيوانات ؟ لماذا لا يجرب أكل لحم البشر الذين لا يعتبرهم مثله ؟ ولماذا لا يستخدمهم لتسليته فى حلبات المصارعة، أو فى مصارعة الأسود والنمرة، فيرى ذلك الكائن البشرى وهو يتلوى وقد أجهز عليه الأسد أو النمر، وأخذ فى تمزيقه إربًا إربًا والدماء تتفجر من جسمه ؟ وفى عصرنا هذا نجد نوعًا

آخر من تجارة الرقيق هو الاتجار بالأعضاء البشرية، أو الاتجار بالهياكل العظمية. فلقد طالعتنا الصحف بأن بعض تجار الذبائح البشرية بالهند يقومون بإحراق الضحايا فى حمامات بها ماء يغلى، ثم ينزعون اللحم كله ويبقى الهيكل العظمى، فيرسلون به إلى البلاد الأوربية حيث يباع بأثمان باهظة، ليقوم طلاب الطب بالدراسة مستعينين به فى إعدادهم لمهنة الطب. ناهيك عن تجارة الرقيق الأبيض وتجارة الرقيق من الشباب والصبية لأغراض الخدمة والأغراض الجنسية. ناهيك عن السبى فى الحروب، إذ كانت نساء الشعب المغلوب والمقهور يصرن غنيمة للجيش المنتصر. فكُنَّ يوزعن على الضباط والجنود، ويصرن بضاعة للمتعة الجنسية. وفى نهاية المطاف بدأت هندسة الوراثة فى غزو عالم الإنسان، وصار من الممكن التحكم فى الأجنة وفى مقوماتها، الأمر الذى سيتواكب معه الكثير من النتائج الخطيرة فيما يتعلق بمستقبل البشرية.

خامساً - عالم الرموز : على الرغم من أن الرموز تقع فى دائرة الإنسان، فإننا نعتقد أنها قد صارت عالمًا مستقلاً بنفسه، وقائمًا بذاته وخاصة بعد أن خرجت الرموز من بطون الكتب والصحف المكتوبة إلى عالم الكمبيوتر وبنوك المعلومات والإنترنت والروبوتس. والواقع أن الإنسان منذ نشأة الحضارة

وهو يقوم بتسجيل خبراته المتباينة بوسائل عديدة مثل الرسم والنحت والكتابة على الحجارة وعلى أوراق البردى وغيره. وكلما تم اختراع وسيلة جديدة للكتابة فإن الإنسان لم يتركها إلا واستغلها الاستغلال الكامل. ولكن المهم أن اختراع الوسائل الجديدة فى الكتابة لم يعمل على إلغاء الوسائل السابقة عليها. فاختراع الآلة الكاتبة والكومبيوتر مثلاً لم يعمل على التوقف عن الكتابة بالقلم. واختراع آلات التصوير الفوتوغرافى لم يعمل على إلغاء الرسم. وعلى الرغم من اختراع الموسيقى الإلكترونيةفإن التلحين الموسيقى ما يزال قائمًا بل ومفضًلاً عن الموسيقى التى تقوم الإلكترونيات بوضعها عن طريق التوافق والتباديل الموسيقية. وقس على هذا جميع الوسائل التى يتم بها التسجيل أو التعبير عن الرموز التى قام الإنسان ويقوم باختراعها وابتكارها. ولا شك أن الإنسان محظوظ لأنه يستطيع أن يرجع إلى التراث الثقافى فى جميع لغات العالم، بل ويستطيع ترجمته إلى ما شاء من لغات. فاليوم نجد أن الكومبيوتر قد دَلَف إلى مجال الترجمة مما يجعل بالإمكان الوقوف على ما يراد الوقوف عليه من معارف بواسطة الكومبيوتر وبنوك المعلومات والإنترت وغيرها.

والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى أن نذكر أن الإرادة

البشرية القوية هى صاحبة الفضل فيما بلغه الإنسان من آفاق كشفية وتجريبية. ولا شك أن الطموح البشرى من جهة، وإرادة الإنسان القوية من جهة أخرى، كان لهما الفضل الأكبر فيما بلغة ويبلغه من كشوف وتجارب فى مختلف الميادين، ولكن نأسف إذ نقرر أن سَبْر المجهول شىء وتحرى خير البشرية والحفاظ على الكرة الأرضية شىء آخر. فالكثير مما حققه الإنسان من كشوف وتجارب، لم يكن لخَيْره فى المدى البعيد، بل إنه كان ضارًا بالتربة وبالنبات والحيوان والإنسان نفسه. ناهيك عن تلويث البيئة والغلاف الجوى وتهديد الكرة الأرضية ذاتها بالتدهور السريع. ومن جهة أخرى، فإن الكثير مما يعمِد الإنسان إلى الكشف عن خباياه والقيام بإجراء التجارب بإزائه، يتعارض تعارضًا فاضحًا مع القيم الدينية والخلقية التى ظلت تحتل مكانة خطيرة فى أنظار الناس عَبْر الأجيال المتعاقبة. وكان نتيجة ضياع كثير من القيم الدينية والخلقية تفشى الجريمة والانحلال وضياع كثير من ألوان السلوك التى كانت تكسب الإنسانية جلالاً ووقارًا واحترامًا.

ويخطئ من يعتقد أن المجالات المجهولة قد استنفدت، وأن الحضارة البشرية قد بلغت القمة التى ليس بعدها قمة. فالواقع أن مجالات الكشوف والتجريب أوسع وأعمق من أن تنتهى. فالعلم والتكنولوجيا ليسا محصورين فى الواقع

الخارجى، بل هما من صميم الوجود الإنسانى، أو قل بتعبير أدق إنهما حصيلة تفاعل الذهن البشرى مع الواقع الخارجى. وكلما زادت الكشوف وأجريت التجارب، فإن مجال التوافيق والتباديل يكون أرحب وأخصب. وبتعبير آخر فإن مجال الكشف عن المجهول يتسع أمام البشرية وَفْق متتالية هندسية، وذلك لأن التقدم العلمى والتكنولوجى يسير وفق هذه المتتالية الهندسية، أى أنه يسير على النحو التالى : ١ -٢ - ٤- ٨ - ١٦ إلخ.

فهذه النظرة إلى مجال المجهول مناقضة للنظرة الشائعة التى تزعم أن مجال الكشف عن المجهول ومجال التجريب قد نَضَبا وأخذا فى الأفول. فنحن إذن متفائلون بإزاء الكشوف المستقبلية وبإزاء التجارب التى سوف تجرى فى المجالات التى سيتسنى التجريب فيها. ولكننا من جهة أخرى متشائمون بإزاء ما سوف يترتب على الكشوف المستقبلية وما سوف يتم التجريب بإزائه. فالنسبة لهندسة الوراثة على سبيل المثال، فإن من المتوقع تطبيقها على نطاق واسع بإزاء عالم الإنسان، فتتدخل هذه الهندسة فى البنية البشرية، وتقوم بتفصيل الأجيال القادمة كما يتم تفصيل القماش حسب مواصفات محددة. ولسوف يتم التحكم فى أعداد الناس وفى نوع المولود، وفيما سوف يحمله من مواصفات تتبدى مع النمو فى

شخصيته. ولسوف تقوم هندسة الوراثة بتفصيل آدميين لكى يكونوا السادة المهيمنين على البشرية والممسكين بدفة مسارها، كما سوف تقوم هذه الهندسة بتفصيل آدميين يكونون عبيداً، أو حتى لكى يكونوا بمثابة مخازن لقطع غيار الأعضاء البشرية التى قد يحتاج إليها السادة المسكون بأزمة ومصائر البشرية. إنهم أضحيات المستقبل الذين سوف يكونون طوع بنان أولئك السادة فيخدمونهم أو يخضعون لما تتطلبه حاجاتهم الجسمية. ولسوف يكون السادة متفوقى الذكاء للغاية بحيث لا تدانيهم فئة العبيد الذين يتم استغلالهم أسوأ استغلال. ونخشى أن تشكّل شعوب الدول المتقدمة فئة السادة بينما تشكل شعوب العالم الثالث فئة العبيد.

الإبداعية والنقد الذاتى والموضوعى :

علينا أولاً أن نقوم بتحديد معنى النقد الذاتى والنقد الموضوعى حتى يتسنى لنا بعد ذلك أن نستكشف العلاقة بينهما وبين الإبداعية. ولنبدأ بتحديد معنى النقد الذاتى فنجد أنه يتحدد فيما يلى :

أولاً - الوقوف على المضمون المعرفى بعامة،والمضمون المعرفى الخاص بالمجال الذى يستحوذ على اهتمام المرء أو المرتبط بمسئولياته أو تخصصه بخاصة.

ثانيا - تصفُّح ما يستعين به المرء من أدوات أو أجهزة أو خدمات فى أداء عمله أو القيام بنشاطه ومدى مناسبتها لأداء العمل أو ممارسة النشاط. وهل هناك مستحدثات أفضل كان خليقا بالمرء أن يحصل عليها أو يستخدمها فى أداء العمل أو ممارسة النشاط؟

ثالثاً - هل المنهج أو المناهج التى يتذرع بها المرء فى ممارسة العمل أو النشاط هو - أو هى - الأفضل، أم أن هناك منهجًا أو مناهج أخرى خليقة بالاتباع، وإهمال ما استمر المرء فى اتباعه من مناهج ؟

رابعاً - هل يتمتع المرء بالاتزان الوجدانى والانفعالى بحيث يقدِّم المناسب من الوجدان والانفعال فى المواقف المتباينة ؟ وهل وسائل التعبير عن الحالة الوجدانية أو الانفعالية وسائل مناسبة ومقبولة، أم أنها وسائل رديئة وممجوجة ؟

خامساً - هل العلاقات الاجتماعية التى أقامها المرء مع الآخرين كافية أم ناقصة أم أنها زائدة عن الحاجة ؟ وهل فى تلك العلاقات ما يضر بالمرء أو ما يجب الإغضاء عنه أو إلغاؤه والتخلص منه ؟

أما بالنسبة لمفهوم النقد الموضوعى فإنه يمكن أن يتحدد على النحو التالى :

أولاً - المقصود بالنقد الموضوعى تقييم الجانب الشيئى أو الرمزى الذى له صلة أو أهمية بالنسبة للمرء. ويترتب على هذا محاشاة تقييم الأشياء أو الأشخاص الذين لا يترتب على نقدهم قيمة أو فائدة لهم أو لمن يقوم بالنقد أو التقييم.

ثانيًا - قد يعنى النقد الموضوعى البحث عن أثر شىء أو شخص فى العمل أو النشاط الذى يضطلع به المرء. فهل لوجود الشىء أو تصرفات شخص ما أثر معوِّق فى نشاط المرء أو فى تعطيل تحقيق أهدافه؟

ثالثًا - هل هناك أشياء أو أشخاص يجب الاستعانة بهم لم تتم الاستعانة بهم حتى الآن، سوف يكون لهم أثر إيجابى فى الإنجاز أو فى طريقة الأداء ؟

رابعًا - هل من الأفضل أن يتم العمل أو النشاط الذى يضطلع به المرء فى تعاون مشترك مع شخص أو أشخاص معيَّنين، أم أن تدخلهم فى العمل أو النشاط سوف يعمل على تعويقه أو على إفساده ؟

خامسًا - هل قيامى بالنقد أوالتقييم الموضوعى سوف يؤثر إيجابيًا فى مستوى أدائى، أم أنه سوف يكون مضيعة للوقت، أو يترتب عليه مآخذ معينة يحسن تحاشيها ؟

وبعد أن قمنا بتقديم تحديد لمعنى النقد الذاتى والنقد

الموضوعى، فإن علينا أن نقوم بتحديد علاقة كل من هذين المفهومين بالإبداعية. ولنبدأ بتفحص علاقة الإبداعية بالنقد الذاتى على النحو التالى :

أولاً - إن الإبداع لا يبدأ إلا من آخر مستوى معرفى بلغه المرء. فمن لا يقف على ذلك المستوى بحيث يتسنى له الانطلاق إلى ما بعده لا يستطيع أن يبدع بأى حال من الأحوال.

ثانياً - وعلى النحو نفسه فإن عدم الوقوف على ما يستعين به المرء من أدوات أو أجهزة أو خامات، لا يسمح له أيضاً بالمساهمة فى العمليات الإبداعية. فالواقع أن هناك تدفقات مستمرة ومتباينة فيما يتعلق بالجديد فى وسائل الأداء. فإذا لم يقف المرء على ما هو موجود بين يديه، فإنه بالتالى لا يستطيع أن يدرك ما استجد بالخارج، وما يجب إحلاله محل ما يجب أن يبعد عن نطاق استخدامه.

ثالثاً - ومن جهة ثالثة فإننا نجد أن المبدعين قد بدأوا بنقد المنهج أو المناهج التى يتذرعون بها فاكتشفوا ما لحق بها من عيوب أو جوانب نقص فأخذوا فى تطويرها أو أخذوا فى ابتداع مناهج جديدة لا تتضمن العيوب أو النقائص التى قاموا باكتشافها فى المناهج التى أخذوا بها أنفسهم وساروا وفقها.

رابعًا - إن نقد المرء لنفسه بصدد حالته الوجدانية الانفعالية، وهل هو يستخدم وسائل مناسبة فى التعبير عن وجداناته وانفعالاته أم أنه يستعين بوسائل تعبيرية رديئة أو غير مناسبة؟ ويقع فى هذا الإطار نقد المرء لنفسه بإزاء ما يمكن أن يكون قد وقع فيه من تحيُّز أو تعصب، فيأخذ فى تنقية حالته النفسية من هذا الاعوجاج النفسى. والواقع أن المتحيز أو المتعصب لا يستطيع أن يكون مبدعًا أو أن يشارك فى المسيرة الإبداعية. ذلك أن الموقف الحيادى هو الخليق بمنح المرء القدرة على الإبداع. أليست تعلقات المرء بما ألفه واعتقد فيه من أخطر العوامل التى تعوقه عن الإبداع ؟

خامسًا - ونقد المرء لنفسه بإزاء ما هو قائم بينه وبين الآخرين من علاقات اجتماعيةأو نقص تلك العلاقات ووجوب الاستزادة منها، أو القيام بشجب بعض العلاقات القائمة، إنما يعتبر عاملاً هامًا فى المساهمة فى الإبداع. فالواقع أن الكثير من الأشخاص والواعدين قد توقفوا عن الإبداع بسبب انهماكهم فى علاقات اجتماعية أو جريهم وراء الأضواء يتلقفونها، فكان من نتيجة ذلك استهلاك نشاطهم الذى كان من الممكن إنفاقه فى الإبداع فى تلك العلاقات الاجتماعية الخاوية من المضمون الإبداعى.

وبعد أن وقفنا على علاقة النقد الذاتى بالإبداعية، فإن علينا أن نلقى بالضوء على العلاقة فيما بين النقد الموضوعى وبين الإبداع. ولعلنا نحدد هذا فيما يلى :

أولاً - بالنسبة للعلاقة بين تقييم الأشياء والأشخاص، فإن الكثير من نقد الأشياء والأشخاص يكون مضيعة للوقت، بل ويكون مضيعة للقدرة الإبداعية. ذلك أن الإبداع الخليق بالتقدير ليس هو ذاك الذى يرتكز على أسس هدمية، بل هو ذاك الذى يرتكز على أسس بنائية. ولكن نعود فنقول إن بعض المبدعين قد قاموا بالهدم قبل البناء. فهم فى نقدهم للموجود كانوا يستهدفون جعل ذلك النقد بمثابة المقدمة أو التمهيد لعملية البناء. أما أولئك الذين يهدمون ولا يبنون، فإنهم وإن أحرزوا شهرة وصيتًا بعيد المدى، فإنهم لا يندرجون فى إطار المبدعين. فالإبداع إيجابى بلا مراء.

ثانيًا - قد يكون مجرد وجود شىء أو شخص ما فى نطاق حياة المرء من عوامل تعطيله عن المسيرة الإبداعية. لقد يكون اشتغال المرء فى أحد الأعمال من عوامل الإعاقة عن الإبداع. لقد يكون اشتغال أحد خريجى الفنون الجميلة برسم الاسكتشات فى إحدى الصحف أو المجلات عامل إعاقة فلا يتسنى له إظهار مواهبه الإبداعية فى رسم اللوحات الفنية

التى كان إذن يشار إليها بالبنان لولا استهلاك وقته بالجريدة أو المجلة.

ثالثًا - وفى المقابل فقد يكون على المرء أن يستعين بأشخاص معيَّنين سوف يكون لهم بالغ الأثر فى الدفع به نحو الإبداع أو مساعدته على إتمام مسيرته فى الإبداع. على أن الأشخاص الذين يجب أن يستعين بهم المرء قد يكونون على صلة مباشرة به، وقد تكون الصلة التى يقيمها بهم غير مباشرة كأن تتم الصلة بالمراسلات. وقد يكون الأشخاص الذين يستعين بهم المرء فى مسيرته الإبداعية من عصور سابقة ومن ثقافات غير الثقافة التى تُظله. فواحد مثل طه حسين اتخذ من المعرِّى رفيق حياة ثقافية لما بينهما من شبه فى فقد البصر والموهبة الأدبية. فكان للصلة الثقافية بينهما الأثر فى إبراز عبقرية طه حسين.

رابعًا - أما بالنسبة للتعاون مع الآخرين فى إنجاز أحد الأعمال أو الانفراد بالعمل دون تعاون مع أحد فى إنجازه، فإن هذا يتوقف على طبيعة العمل الإبداعى الذى يُقْبل المرء على إنجازه. فالشاعر مثلاً فى قرضه لإحدى قصائده يجب ألا يجعل له من أحد الشعراء المبرِّزين شريكًا له فى قرض الشعر أو فى عمل القصيدة. وكذا الفنان الذى يقوم برسم لوحة، أو

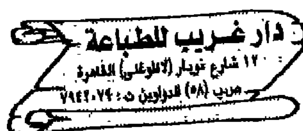
النحات الذى يقوم بنحت تمثال. فرسم اللوحة أو نحت التمثال يجب أن يكون عملاً يضطلع به مبدع واحد. أما القيام بتشييد إحدى القرى السياحية أو إقامة مجمع يضم العديد من المصالح الحكومية، فإن من الممكن اشتراك أكثر من شخص مبدع واحد فيه. ولكن فى مثل هذه الحالات يجب تقسيم العمل الإبداعى إلى وحدات لكل وحدة منها شخصية قائمة بذاتها. ولكن هذا لا يحول دون وجود شخصية منسّقة قد تكون موهوبة فى العمل التنسيقى الإبداعى.

خامساً - بالنسبة لتأثير التقييم الموضوعى فى مسيرة المرء الإبداعية، فإن من الواجب على المرء أن يتذرع بالنظرة المستقبلية فيتوقع ما سوف يحدث بعد قيامه بالنقد الموضوعى. إن بعض النقد الموضوعى برغم موضوعيته قد يجلب على المرء الكثير من الأضرار أو إقلاق البال أو قد يحدث لديه توترات نفسية أو تشتيت الذهن، وهى أمور كثيراً ما تعمل على إبطال القدرة على الإبداع. فلماذا يدخل المرء نفسه فى دوامات ليس من ورائها سوى إفساد حياته وصرفه عن العمليات التى كان من الممكن قيامه بها لولا تدخله فى عمليات النقد المتعلقة بأعمال الآخرين؟ الواقع أن الغالبية العظمى من المبدعين يتحاشون التدخل فى أعمال غيرهم أو فى النقد. حتى لا يجلبوا على أنفسهم ما لا تحمد عقباه،

وحتى يتحاشوا هجوم الآخرين عليهم بالنقد والتجريح انتقامًا وتصفية لحسابات قديمة، فالخليق بالمبدع أن يكون فى الظل بقدر الإمكان حتى يتسنى له إحراز هدوء البال. ولعلنا نلاحظ أن الغالبية العظمى من المبدعين يعكفون على ذواتهم لفترات طويلة حتى يتسنى لهم الكشف عن الكنوز المخبوءة بدخائلهم أو ترجمة ما تم بعقولهم الخصبة من تفاعلات خبرية عظيمة تأتت لهم نتيجة الهدوء النفسى والبعد عن المشاكل أو الخصومات التى لا طائل وراءها. ومادام العمل الإبداعى نسيجَ وَحْده sui generis، فإنه ليس إذن بحاجة إلى الهتافات تدوى حول المبدع، بل إن الإبداع هو الذى يفصح عن نفسه وهو الذى يقدم نفسه بنفسه إذا كان خليقًا بالبقاء أو البروز للعيان وحمل الآخرين على الاعتراف بوجوده واستمرار بقائه خلال العمر الذى يستحق البقاء خلاله، سواء كان عمرًا طويلاً أم عمرًا قصيرًا حسب أهميته وجِدَّته.

★★★

الفهرس


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٧٩٤٢٠٧٩



هذا الكتاب

كشف للنقاب عن إرادة الإنسان، وكيف أنها تعتمل في قوامه الداخلي وفي علاقاته بالآخرين في مسارات الحياة المختلفة، وهو استمرار لما سبق أن بدأه المؤلف من دراسات حول الإرادة واعتمالها في حياة الفرد والجماعة على السواء.

هاني أحمد غريب